
مدونة أبو عبدو
أبو عبدو البغل
سلامة كيلة
الماركسية والفهم المادي
حول الفهم المادي للمادية

سلامة كيلة

الماركسية والفهم المادي

حول الفهم المادي للمادية

منشورات الوعي الجديد

الماركسية والفهم المادي

1

- سلسلة كراسات ماركسية (9)

إشراف: سلامة كيلة

- الطبعة الأولى: 2009
- منشورات الوعي الجديد

المادية أساس في الماركسية، حيث أنها المفصل الذي حوّل جدل هيغل إلى منهجية علمية تنطلق من وعي الواقع. وإذا كانت المادية كفلسفة قائمة قبل ماركس إلا أن انتقالها النوعي تحقق معه عبر هذا الجدل. لأن المسألة لم تعد تتعلق بواقع ساكن، وبتفسير ميكانيكي لحركته، بل أصبح من الضروري تلمس الصيرورة الواقعية التي كان جدل هيغل قد بلورها على صعيد الفكر، لكن منطلقاً من أنها هي صانعة هذه الصيرورة الواقعية.

لهذا ينطرح السؤال: ما المادية في الماركسية؟

ولقد فرض البحث فيها الميل الذي تأصّل لدى اتجاهات ماركسية هيمنت لعقود (خصوصاً الماركسية السوفيتية) كانت تنكفئ بالجدل المادي، وبالتالي بفهم المادية إلى مراحل أسبق، كاسرة النقلة النوعية التي تحققت مع ماركس. وبهذا فقد عادت إلى مادية مبتذلة اقتصادوية الطابع، استناداً إلى الأهمية المتزايدة التي حظي بها الاقتصاد في بحوث ماركس، واعتباره بأن الاقتصاد هو المحدِّد لمجمل البنية المجتمعية، وللفكر بالخصوص. مما بلور النظرة التي لا ترى في الفكر سوى

انعكاس للاقتصاد، انعكاس ميكانيكي، صورة. وهو ما كان يولّ العفوية في الممارسة. فـ "الحركة" تأتي بعد التحوّل الواقعي، والفكرة تتبلور بعد هذا التحوّل.

هذا الوضع فرض إعادة البحث في المادية، رغم أن إنجلز قد قدّم دراسات مهمة في هذا المجال، وكذلك لينين. لكن تحوّل الماركسية إلى مادية مبتذلة كان يفرض إعادة البحث في المادية، وخصوصاً في موضع الفكر في الصيرورة الواقعية. فهل أن المادية لا تجعل أولوية للفكر في سياق الصيرورة هذه؟

إذا كان هذا الكتاب ينطلق من أن المادية كرؤية لم تتبلور إلا في العصر الحديث، وبالتالي تسيّد المثالية على تاريخ البشرية، فإنه سعى لأن يتلمس معنى المادية، والفارق بين المادة والمادية، ويشير إلى العلاقة بين المادة والوجود المادي. لكنه يتناول تاريخ الفكر بعلاقته بالمادية والمثالية، ويشير إلى توضّعه في البنى الاجتماعية، ومسألة الفارق بين الفكر والوعي، والوعي الجمعي ومسألة الانشقاق فيه. لكي يلمس بأن الفكر/ الوعي هو جزء من الوجود الواقعي، وبالتالي فهو عنصر فعل وليس صورة أو انعكاس سلبي. نعم هو نتاج الوجود الواقعي لكن هذا لا يساوي اعتبار أنه صورة، حيث أنه

عنصر مؤثر، في السلب وفي الإيجاب، في حركة الواقع، لأنه وعي البشر الذين يمارسون وجودهم. ولهذا كلما تطور وعيهم تطورت مقدرتهم على السيطرة على هذا الوجود، وعلى إخضاعه.

هنا نلمس العلاقة بين الوجود المعطى (الطبيعي) وبين الوعي به، وبالتالي العمل على تحويله بما يحقق سيطرة أعلى عليه، وبالتالي يحقق نمط حياة يوجده البشر بوعيهم وبواقعهم.

إذن، المادية في الماركسية لا تعني المادة، ولا الملموس فقط، بل تعني الفكر كذلك، حيث أنه جزء من الواقع. ولقد تبلور الجدل المادي من فهم هذه المسألة، لأن ماركس كان يعتقد بأن المنظومة النظرية التي بلورها هيغل في الجدل هي حركة الواقع مجرّدة في الذهن، وما فعله هو فهم ذلك، وبالتالي البحث انطلاقاً منها في حركة الواقع. في الوجود الواقعي، وفي الصيرورة الواقعية. لهذا بات تحويل المجتمع يفترض وعيه قبلاً، وبالتالي وعي ممكنات الصيرورة الواقعية (ممكنات وضع الطبقات ووعيها). وهذه هي مهمة الماركسي الذي يسعى إلى تحويل الواقع.

أخيراً، سنلمس هنا الترابط بين الفهم المادي والجدل، وهذا

ما يحتاج إلى توضيح آخر. هنا يجري التركيز على المادية والفهم المادي، رغم أن التحليل يقوم على الجدل. فعبره تحققت الانتقالة في الفهم المادي، وبالتالي جرى تجاوز المادية القديمة، كما جرى تجاوز الفلسفة القديمة. هذه هي لحظة ماركس وإنجلز.

(1)

المادية والمثالية

إلــى أي مــدى يمكــن أن نقــول بــأن لتــاريخ الفكــر النظــري "خاصيته الذاتية"؟ هل أن الذات هي خـارج الموضـوع، منفصلـة عنه؟ أم أنها تعبير عنـه وبهذا تكون خاصـية الـذات هـي خاصـية الموضوع ذاته؟ وبالتالي تكون "خاصية" الفكر أنـه فكـر، أي أنـه تصورات وأفكار، هي انعكاس مطابق أو مفارق للموضوع. إنهـا إذن كلمـات مصـاغة، منسقة، للتعبيـر عن الموضـوع. إنـه العقل البشــري وهــو يحــوّل الواقــع إلــى أفكــار وتصــورات و"مثــل" و"أحـلام". إنـه بالتـالي العقـل البشـري وهـو "يـنظم" الواقـع فـي صورة ما. وهو بهذا يخضـع لتاريخيـة محـددة، مرتبطـة بتاريخيـة التطور الاقتصادي الاجتماعي؟

إن الانطلاق من أن ذاتيـة هذه "الخاصـية" تكمـن فـي نشـوئها

ضمن عملية تكوّن معقدة لاتجاهين فلسفيين متعارضين، هما الاتجاه المثالي والاتجاه المادي وفق الفهم المتداول انطلاقاً من "الماركسية السوفيتية"، يعطيها معنى موهوماً، لأنها هنا بالذات تدمر التاريخية حيث تعتبر أن كل تاريخ الفكر النظري هو تاريخ التعارض والتفارق بين هذين الاتجاهين الفلسفيين، بينما كان هذا التعارض وذاك التفارق من خاصيات عصر محدد، هو العصر الحديث، عصر الرأسمالية، حيث نشأ التنازع في الفكر بين هذين الاتجاهين. وبالتالي فإن نشوء كل منهما متأخر عن الأخر كثيراً. إن تحديد هذه "الخاصية" للفكر النظري أسس لتصور "مثالي" لتاريخ الفكر النظري ولمعنى كل من المادية والمثالية، حيث أصبحت "الخاصية" هذه هي خاصية نظرية (أي فلسفية)، وهنا تكمن أزمة "الخاصية الذاتية" لتاريخ الفكر النظري.

نقد الخاصية الذاتية للفكر:

ولسوف يتضح ذلك حينما نرى أن الاتجاهين الفلسفيين اللذين هما الاتجاه "المثالي" والاتجاه "المادي"، لكننا لا نقع على معنى لكل من الاتجاهين. هل إن معناهما بديهي؟ وهل شهد التاريخ هذا الاستقلال بين اتجاهين؟ وهل أن تطور الفكر النظري هو تطور

هذين الاتجاهين في اتحادهما وتصارعهما؟ وهل هذا الميل الذي يمتلك القانونية التطورية الخاصة هو لكلا الاتجاهين الفلسفيين الرئيسين، ومن ثم هل المثالية اتجاه فلسفي كما المادية؟ أحياناً تجري المساواة بين "الاتجاه" و"الميل"، رغم الفارق الهائل بينهما. فالميل فرع في اتجاه، وبالتالي لا يحظى باستقلال، وربما يمثّل تراكماً داخل الاتجاه ذاته يمكن أن ينشقّ فيما بعد. ولا شك في أن هذا الخلط نابع من التباس معنى "المثالية" و"المادية".

ولقد حدد إنجلز معنى كل منهما بدقة، حينما أكد أن معناهما يتحدد في القول بأولوية الفكر أو المادة تحديداً، أولوية الفكر، ولم ير لهما معنى خارج ذلك، فالمثالي هو من يؤكد على أولوية الفكر، والمادي هو من يؤكد على أولوية المادة [1].

ووفق ذلك فإن المثالية هي التي كانت مسيطرة على كل تاريخ الفكر منذ نشوئه إلى العصر الحديث، حيث اعتبرت الفكرة (والله ضمن الفكرة) هي العلة الأولى، رغم "الميول المادية" والأفكار الواقعية التي انوجدت طيلة تاريخ الفكر النظري. وهنا

---

(1) إنجلز «لودفيغ فويرباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية» في ماركس إنجلز «منتخبات في ثلاثة مجلدات» م3، ج2، دار التقدم، موسكو، ط1، 1981، ص197.

يبدو أن اتجاهاً واحداً ساد تاريخ الفكر النظري قبل العصر الحديث، وهو الاتجاه المثالي، لكنه كان يحوي "ميلاً مادياً" بصيغة أو بأخرى، وتراكمات هذا الميل هي التي أسست لنشوء اتجاه مادي في العصر الحديث، تبلور مع ماركس تحديداً، ليشهد الفكر النظري صراعاً حقيقياً بين اتجاهين فلسفيين، "مثالي" و"مادي". ولقد تحقق ذلك، فقط، حينما تشكل اتجاه يستند إلى فكرة أولوية المادة على الفكر. ولا شك في أن إطلاق تعبير مادي عليه أثار التباسات أكثر مما أوضح كنهه، فهو اتجاه علمي، ينطلق من تحليل المادة، مستنداً إلى منطق محدَّد. ونبعت ماديته من هذه الفكرة البسيطة: أولوية المادة على الفكر.

في هذه المرحلة بدأ تطور الفكر الفلسفي يشهد التضاد بين اتجاهين فلسفيين، أما قبل ذلك فلقد شهد تاريخ الفكر النظري سيادة الطابع المثالي للفلسفة، وإن كنا نميز بين شكلين لهذا الطابع، الأول: لاهوتي، يستند إلى فكرة الله، الصانع، الفاعل، المقرر، والثاني: يستند لا إلى الله، بل إلى الفكرة ذاتها، الصانعة الفاعلة، المقررة، لكن دون أن ننسى بأن الله فكرة أيضاً، لكنها ترسم في أهاب مقدس، لم تستطع الفكرة في وقت لاحق حيازته، وأيضاً دون أن ننسى بأن العلة الأولى في الفلسفة كانت مفارقة

للعقل وليست من العقل كما سيصبح في الفكر الحديث. لهذا جاء الفكر النظري البرجوازي كاستمرار لفكر مثالي عريق في القدم، بينما لم تنشأ "المادية" سوى من ميول نشأت تحت أهاب الفكر المثالي، أساسها والمحدِّد لنشوئها هو أن الفكر هو انعكاس للواقع مهما كان غائراً في المثالية، أو متدثراً بالمقدس، حيث هذه المثالية وذاك المقدس هما نتاج الواقع ذاته، وبالتالي فمهما كانت الأفكار العامة مثالية فإن توضعاتها الواقعية سوف تلمس مشكلات الواقع، مما يسمح بنشوء "ميل مادي" ما. لهذا وجدنا أن أكثر الأفكار مثالية، المتبلورة مع هيغل، غدت أكثر الأفكار مادية، حينما أوقفت على قدميها، بتحديد أولوية الواقع على الفكر. ولقد أوضح لينين هذه المسألة حينما قال بأنه "في المؤلف الأكثر مثالية لهيغل نجد أقل ما يمكن من المثالية، أكثر ما يمكن من المادية، هذا أمر "متناقض"، لكنه واقع"[1].

هنا نلحظ "سخف" "الخاصية الذاتية" لتاريخ الفكر النظري، حيث تتهاوى فكرة التعارض بين "اتجاهين فلسفيين". بل تبدو خاصيته أنه تاريخ التراكم الذي يفضي إلى قطيعة، وهو في كل

1-لينين "الدفاتر الفلسفية -1، عن الديالكتيك" ترجمة الياس مرقص، دار الحقيقة-بيروت، ط2، 1983.

الأحوال خاصية التاريخ كله، ولا غرابة في ذلك لأن الفكر النظري هو انعكاس (وإن معقد) للواقع.

لهذا يفرض تطور الواقع تطور الفكر. لكن، من زاوية تناول "المثالية" و"المادية" نلمس "ثباتاً" في طبيعة الفكر، رغم تطور الواقع منذ عشرات القرون إلى الآن ورغم اختلاف طابعه. حيث أنتج العقل البشري فكراً مثالياً، رغم كل التطور الواقعي الذي تحقق. لقد تحقق التراكم في "العقلنة"، وبالتالي في وعي الواقع بالابتعاد عن التفسير الميتافيزيقي، وهذا التراكم هو الذي أفضى إلى نشوء "المادية". وكان تطور العلوم الطبيعية هو أساس نشوء الفلسفة "المثالية"، ومن ثم "المادية". والعلوم الطبيعية كانت تبحث في "الفيزيقا" أساساً، أي في المادة/ الواقع، ورغم تأثرها فلسفياً بالميتافيزيقا فقد مهدت شيئاً فشيئاً لنشوء العقلانية (المثالية) ومن ثم المادية (الميكانيكية ومن ثم الجدلية).

نؤكد هنا بالتالي أن تاريخ الفكر النظري هو تاريخ "قطب" مهيمن انسلّ منه حديثاً "قطب" جديد، دون أن يستطيع الهيمنة بعد. فمن زاوية "المثالية" و"المادية" ما زالت الأولوية تعطى للفكر، والتنازع بين "المادية" و"المثالية" على أشده، فقط، في هذا العصر. ولكي نفهم نشوء "المادية" علينا أن نبحث في

التراكم الهائل المتحقق طيلة القرون الماضية في ظل هيمنة "المثالية"، حيث لم يكن التنازع بينهما قد نشأ بعد. لقد حاولت "المادية" الاستقلال منذ تطورت العلوم الحديثة، وبالاستناد إليها، لتنشأ "المادية الميكانيكية" التي لم تخرج، رغم ذلك، من عباءة "المثالية"، لكنها عبرّت عن عظم التراكم الذي أفضى فيما بعد مع ماركس إلى نشوء "المادية" كتصور "فلسفي" مستقل أخذ يفرض نفسه شيئاً فشيئاً دون أن يصبح قطباً مهيمناً بعد، متكئاً على أقصى ارتفاع المثالية مع هيغل، حيث تبلور الجدل الذي هو الصيرورة الواقعية مبلورة في أقصى التجريد، والتي كانت تبدو أنها "محركة" الواقع، مؤسسة صيرورة الواقع. ولتبدو قيمة ماركس هنا، حيث باتت الصيرورة الواقعية هي محدِّد صيرورة الفكر، وباتت صيرورة الفكر، التي تتمثَّل في الجدل، هي المنهجية التي تؤسس لوعي الواقع علمياً، عبر الانطلاق من إضافة ماركس العظيمة، كون الواقع هو محدِّد الفكر.

هنا قام التنازع بين "اتجاهين فلسفيين" وهو ما زال قائماً، رغم التأثير الواسع الذي غدا للاتجاه "المادي"، حيث امتلك حيّزاً واسعاً، لا كاتجاه مستقل فقط، بل في إطار التأثير في الاتجاه "المثالي". والسؤال هنا بات يتمثل في إمكانية أن يتحوّل إلى قطب

مهيمن.

لكن، لا بدّ من التنبيه إلى أن نشوء اتجاه "مادي" مستقل لم يمنع من أن يخضع لتأثير "المثالية"، حيث أصبح لدى "الماركسية الرائجة" "فكرة" تعطى الأولوية على الواقع/ المادة. وبهذا فقد عاد، في هذه الحالة تحديداً، إلى أن يكون فكراً "مثالياً". وهذا يفتح على مسألة هامة هي أن الفكر هو جزء من الواقع أيضاً، فهو نتاج الإنسان الواعي، أي الإنسان الساعي إلى صوغ واقعه في تصورات وأفكار. والفارق بين الواقع والمادة هو هنا، حيث تخضع المادة لفعل الإنسان ولكن لـ "عقله" أيضاً. **هذا الفعل وذاك العقل يسهمان في وعي المادة، وبالتالي، في السيطرة عليها وتطويرها كذلك**. هذا هو الموضوع /الواقع حيث يحظى العمل الإنساني بقيمة عليا، وحيث يكون لـ "العقل" (نتاج العقل الفكري والعملي) دور هام في صيرورة الواقع.

المثالية وموقع الفكر في الواقع:

إن هذه المسألة توضح الطابع المعقد للفكر، وبالتالي مدى الحاجة إلى تحديد معنى "المثالية" و"المادية". لأن القول بأولوية الواقع/ المادة على الفكر لا يفضي إلى القول بـ "تبعية" (الحاقيّة)

الفكر للمادة/الواقع، بل يشير إلى أنه نتاجها، انعكاس لها. وبين "التبعية" (الالحاقية) والانعكاس مسافة لا بدّ من وعيها (رؤيتها). وهنا تتحدد قيمة القول بأن معنى "المثالية" و"المادية" مرتبط بأساس عام، بزاوية نظر عامة، هذا الأساس هو إما أن الفكرة هي صانعة الواقع/المادة، هي مؤسسته، وإما أن الواقع/ المادة هو صانع الفكرة ومؤسسها. أو بالسؤال هل الواقع/ المادة هو الأصل أم الانعكاس؟ وبالتالي، حينما نؤكد أن الواقع/ المادة هو الأصل وأن الفكر هو صورتها نستطيع العبور إلى مسألة دور الفكر الذي يغدو جزءاً من الواقع مادام نتاج الإنسان الواقعي. وهو هنا بالذات يتحدد إما بكونه فكراً "وهمياً"، صورة مشوهة عن الواقع ومعاكسة له، أو بكونه فكراً مطابقاً يعبّر عن الواقع. وفي كلتا الحالتين سوف يحمل من الواقع شيئاً ما، رغم أنه لا يكون فكراً "مادياً" إذا ما لمس الواقع، انطلاقاً من رؤية "وهمية". وبالتالي فإن "المثالية" تحمل شيئاً ما "مادياً" مادامت نتجت عن "عقل" الإنسان الواقعي الذي يسعى للتعبير عن واقعه، كما يجهد للإجابة عن أسئلة الواقع ويعمل من أجل "التقدم". ولهذا فقد لعب الفكر "المثالي" دوراً مهماً في التقدم طيلة القرون الماضية. **لقد تطورت الفلسفة (وكل العلوم**

النظرية) في قالب "مثالي"، ونضجت المقولات المادية في هذا القالب. لهذا قلت سابقاً إن الشكل الناضج للمثالية مع هيغل كان أساس تشكل "المادية" مع ماركس. ففي قالب "المثالية" تبلور مفهوم العقلانية ومفهوم التقدم ومفاهيم الشك والنقد والجدل والنسبية، الحقيقة والخطأ، العام والخاص، الشكل والمضمون، الأمة والوطن والطبقات والدولة و... إلخ. لكن كل تلك المقولات، وكذلك كل مفهوم "مادي" كان يوضع في قالب "مثالي". لهذا عزي كل حدث واقعي إلى علة أولى. وهنا بالتحديد يكمن دور الفلسفة "المثالية" القديمة والحديثة، حيث تطورت ونضجت وهي تؤدي هذا الدور. لكنها أيضاً كانت توسّع من معرفة الواقع وتكشف مقولاته.

وإذا تجاوزنا "المثالية" بتأكيد أولوية الواقع/ المادة، واعتبرنا أن الفكر ليس "تابعاً" (ملحقاً) بالواقع، بل انعكاس له ومتضمن فيه في الوقت ذاته، أي إذا انطلقنا من أن العلة الأولى هي الواقع/ المادة ذاته نستطيع أن نحدد موقع الفكر في الواقع. فالفكر بما هو مجهود إنساني (عمل إنساني) سوف يكون أساس تطور العلوم الطبيعية الموصلة إلى الصناعة، التي هي أساس النهضة الحديثة، كما أنه أساس صياغة المفاهيم المقاربة شيئاً فشيئاً

للواقع، وبالتالي تأسيس النظام الاجتماعي (بما فيه النظام السياسي) بما يخدم تقدم البشر. فقد تطورت الصناعة نتيجة اكتشافات علمية متتالية. كما تطور النظام الاقتصادي الاجتماعي (والسياسي) نتيجة (اكتشافات) متتالية أيضاً. هنا تتحقق مقولة التراكم الذي يفضي إلى انتقالات (مقولة الكم والكيف). لكن أيضاً، يمكن أن نلمس فعل الفكر الذي يجعل له استقلالية نسبية ضمن التطور الاقتصادي الاجتماعي العام تؤهله لأن يصبح، في لحظة ما، عنصر تأثير. والهام هنا هو ملاحظة أننا نقول في لحظة ما، وهذا يتعارض مع "المثالية" التي تجعل له فعلاً دائماً لأنه الفاعل الأول. لتبدو "المادية" ضمن ذلك كأنها الفاعل في لحظة ما فقط، وبهذا نرى انقلاب المعادلة، حيث تبدو "المادية" مصوغة في قالب "مثالي"، بينما تغدو "المثالية" (وهنا نقصد دور الفكر تحديداً) مصوغة في قالب "مادي". هذا الانقلاب تحقق مع ماركس حينما أوقف الجدل الهيغلي على قدميه[2].

قيمة المثالية:

---

2 -كارل ماركس"رأس المال" م1، ج1، دار التقدم، موسكو، ط1/ 1985، ص28.

الاستقلالية النسبية للفكر نابعة من أنه فعل الإنسان الواقعي، في سياق وعيه لواقعه، عبر تحديد تصور لهذا الواقع، لكن أيضاً بالسعي لتحويله. لكن لا بدّ من الانتباه إلى أن الفكر بالأساس يسعى للإجابة على المشكلات التي تنتج في الواقع، فهو إذن محدَّد به. فالفكر لا يجيب إلا عن المشكلات التي يطرحها الواقع كما أكد ماركس(3). لكن الإجابة يمكن أن تكون زائفة كما يمكن أن تكون حقيقية. ولقد قدّمت "المثالية" إجابات زائفة كما قدّمت إجابات حقيقية. وإذا كانت قد استنفدت طاقتها (نتيجة التطور العلمي الهائل) فلا يجوز لنا أن نتجاهل أنها قدّمت إجابات حقيقية أسهمت في تحقيق التراكم الهائل الذي أنتج "المادية" كاتجاه فكري. كما لا يجوز أن نتجاهل أنها قدّمت إجابات أسهمت في تحقيق التطور الاقتصادي الاجتماعي الهائل. والأساس في ذلك هو أن التطور في الواقع وفي الفكر هما من فِعل البشر، بتطور قدراتهم وتطور وعيهم، وبالتالي بتطور فِعلهم والتزايد المتتالي لسيطرتهم على الطبيعة. و"المادية" هي الشكل الأرقى للفكر في سعيه لوعي الواقع ووعي صيرورته، وبالتالي لتقديم الإجابات

3-كارل ماركس "إسهام في نقد الاقتصاد السياسي" ترجمة أنطون حمصي، منشورات وزارة الثقافة – دمشق 1970 (ص 26).

التي تسهم في تنظيم فِعل البشر من أجل الوصول إلى هدف أسمى هو رفاهية البشر. إنها تهدف إلى تقديم الإجابات الحقيقية (العلمية) لكي ينتهي التضاد بين الوعي والواقع، بتأسيس وعي مطابق. وهذه أرقى حالات الوعي، حيث يعي البشر الصيرورة الواقعية لكي يستطيعوا إخضاع الطبيعة والمجتمع لمشيئتهم كمجموع (أي لمشيئة كل البشر). وبهذا تكون "المثالية" كاتجاه قد هُزمت، وتسيّدت "المادية" كاتجاه (كقطب).

صراع المثالية والمادية:

لهذا يبدو التعارض (التضاد) بين "المادية" و"المثالية" القائم راهناً، كلحظة انتقالية، وفي اللحظة الراهنة تبدو "المادية" كاتجاه (وليس كميل مستقل) هي "الأضعف"، وأن "المثالية" هي المسيطرة، مادامت تتحكم بـ"عقل" البشر عموماً، أي مادامت "المادية" مازالت تشكل أساس وعي "قلة" (هم من المثقفين). ورغم تأثيرها في العلوم عموماً (الفلسفة وعلم الاجتماع والاقتصاد والسياسة والنفس والتاريخ والأدب...)، فإنها ـ وفي وضع سيطرة "المثالية" ـ تتأثر بها. لهذا نلاحظ تحوّل "المادية" إلى "المثالية" المرتدية شكلاً مادياً لدى قطاعات من المثقفين

"الماديين"، في اللحظة التي يجعلون من "المادية" (أو المقولات التي كانت نتاج الفكر المادي، والمقولبة في صيغة "متماسكة") علة أولى تحدد مسار الواقع. ولعل مقولة الاستقلالية النسبية للفكر كانت "المنفذ" لهذا التحوّل "المثالي"، حيث تهدر تاريخية الفكر كما يهدر الواقع لمصلحة علة أولى هي "المادية". لهذا أكّدت سابقاً على **الفارق بين الوضع العام للفكر بصفته انعكاس للواقع/ المادة وبين دوره في لحظة محددة**. وكذلك بينه وبين كونه يجيب عن أسئلة الواقع ذاتها، وهنا يكمن **الفارق بين وعي الواقع وعي مكوناته وطبيعة العلاقات فيما بينها، ووعي تاريخيته، وبين تغييره**. الأمر الذي يقتضي وعي الواقع أولاً والإجابة عن أسئلته ثانياً، أي تحديد المشكلات التي يستدعي حلها تحقيق التقدم. فإذا كانت الصيرورة الواقعية تفرض في كل لحظة تقدماً ما، فإن الفارق بين الطبيعة والمجتمع هو في دور البشر، ووعي البشر جزء من وجودهم منذ أن أصبح الإنسان عاقلاً. وكلما ارتقى وعي البشر بالقدر الذي يستدعيه عملهم (تحويلهم للطبيعة) سارت الصيرورة الواقعية في نسق "إنساني" يحقق مصالحهم أكثر فأكثر بآلام أقل فأقل. وهنا يتوضح أيضاً مدى ارتباط الفكر بالواقع، حتى وهو يؤثر فيه. ولتبدو الأحلام

خارج إطار وعي الصيرورة أوهاماً. ورغم أهمية الأحلام (التي هي تخيّل لحياة أفضل) فإن الفارق بين كونها واقعية أو "وهمية" هو بالتحديد في إجابتها عن أسئلة الواقع ذاته.

نلمس هنا فكرة ماركس: بأن مهمة الفلاسفة كانت تفسير العالم، بينما المطلوب هو تغييره[4]. وإذا كان ماركس يشير إلى الفعل (العمل) من أجل تغيير العالم، فإنه أيضاً يلمس مسألة وعي الفِعل. فبين التفسير والتغيير يكمن دور الوعي/ الفكر، حيث يتحدد الدور الواعي للبشر وهم يغيّرون واقعهم. ولنلاحظ هنا أن تغيير الواقع يبقى محدداً بممكنات الواقع ذاته. وهنا تبرز قيمة مقولة التراكم، التراكم في الواقع وفي الفكر معاً (الواقع هنا يعنى الواقع الاقتصادي الاجتماعي، والفكر مادام وفق الرؤية "المادية" من الواقع)، لكن التراكم يفضي إلى تغير نوعي أساساً. و"الوهم" هو الفكر الذي يتجاوز ذلك ليقدم إجابات لأسئلة لم يطرحها الواقع، سواء لأنه تجاوزها أو لأنه لم يهيئ لها بعد. وفي كلا الحالين يكون الفكر "مثالياً" لأنه يحكِّم الإجابات التي لم تكن نتاج الواقع والتي باتت تمثل الحل لمشكلاته بالواقع ذاته، وبالتالي

4-انظر النص في فريدريك إنجلز «لودفيغ فويرباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية» دار الطبع والنشر باللغات الأجنبية، موسكو (د.ت) ص72.

يحكّم الفكرة بالواقع. وبالتالي فإن ماركس أكّد ضرورة تفسير العالم من أجل تغييره.

وإذا كان العمل البشري ينتج تحوّلات غير متوقعة، وهو ما يسمى المصادفة، أو هكذا كان التفسير "المثالي" لهذه التحولات، فإنها ضرورة لأن العمل البشري يقود إلى تحقيقها، بغض النظر عن وعي البشر أنفسهم. لهذا أسميت في "المادية" الضرورة العمياء. ولا شك في أن مهمة "المادية" تكمن في الكشف عن نتائج العمل البشري، لتتحول الضرورة العمياء إلى ضرورة واعية، وبالتالي تحقيق المزيد من سيطرة البشر على الصيرورة الواقعية، وليصبح تغيير العالم مرتبطاً بحركة واعية تقدّم الحلول الممكنة لتناقضات الواقع.

الاستقلالية النسبية للفكر:

المادية إذن تعطي الأولوية للواقع/ المادة، لكن دون تجاهل وضع الفكر في الصيرورة. وضمن هذا الفهم نزيل المزدوجين لنؤكد على: **المادية**. لقد حاول إنجلز أن يوضح فكرة لهيغل بالاستناد إلى منهجه، أي الجدل، والفكرة تتعلق بالعلاقة بين الفكر والواقع تحديداً. رغم أن التفسير الهيغلي لهذه الفكرة كان

يضفي عليها طابعاً محافظاً لأنه كان ينطلق من أولوية الفكر ومن فاعليته. تقول فكرة هيغل "إن كل ما هو عقلاني واقعي وكل ما هو واقعي عقلاني". ولقد استند إنجلز إلى فكرة الصيرورة القائمة على أساس نفي النفي وهو يتناول هذه المسألة، حيث أن كل ما هو واقعي عقلاني مادام يطابق عملية التقدم، وبالتالي ينسجم مع الصيرورة، لكنه في سياق تطوره ينقلب إلى اللاعقلانية ليغدو العقلاني حاجة واقعية، أي ليغدو "حلم" البشر في التقدم حاجة واقعية، حيث يصبح ما هو واقعي منافياً للعقل، وبالتالي وجب تغييره[5].

ضمن هذه الحدود تتجلى الاستقلالية النسبية للفكر ضمن التصور المادي، فيغدو واقع البشر المؤسَّس على فعلهم (عملهم) منافياً للنظام العام الذي يعيشونه فتنفرض الحاجة لمطابقة واقعهم مع النظام العام من خلال إعادة تأسيسه ليطابق أحلامهم الجديدة. ومهمة الفكر تكمن في وعي الواقع المؤسس على فِعل البشر ووعي عدم التطابق القائم، ومن ثم صوغ أحلام البشر ووعي آليات تحققها لكي يكون فِعل تحققها فِعلاً واعياً.

5-انظر إنجلز في ماركس - إنجلز «منتخبات»، سبق ذكره، ص189.

بدون هذا الدور للفكر تبقى المادية محاصرة بمزدوجين. لأنها تكون حينها مادية مبتذلة ساذجة، وهي "المادية" التي تؤسس لمثالية مفرطة، حيث تتحول مفاهيم "مادية" مبسطة إلى علة أولى تحدِّد الواقع وتقرره وتتحكم فيه، فهي تقرر "تبعية" (الحاقية) الفكر للواقع، وبالتالي تجعل الواقع فكرة وتلغي الواقع الحقيقي، ليقف هيغل على رأسه من جديد، من خلال تحويلها الواقع إلى فكرة. أو من جهة أخرى لأنها تقرر فكرة الانعكاس المبسط (والميكانيكي) للفكر و"تبعيته" للواقع، فتغرق في رؤية ميكانيكية تنافي مفهوم الصيرورة من جهة، والواقع الحقيقي المؤسِّس للصيرورة من جهة أخرى، وتتخلى عن كنه الصيرورة الواقعية (التراكم الكمي المفضي لتغيّر نوعي، والنفي ونفي النفي، والتناقض)، وبالتالي تهمل الأحلام، أي تهمل العقلاني حينما يصبح الواقع لا عقلانياً. وفي هذا تلتقي "المادية" والهيغلية في كونهما يؤسسان لبنية محافظة ورجعية، ليبدو "كل ما هو واقعي عقلاني"، وهذا هو طابع السياسة العامة للحركة الشيوعية. أو من جهة ثالثة تتحوّل الاستقلالية النسبية للفكر إلى استقلالية تامة، فيضخّم دور الفكر وتغدو الأحلام "أوهاماً". وهنا تبدو العودة إلى "المثالية" صريحة.

وكل ذلك يوضح مدى الرسوخ الذي مـازال الفكر "المثـالي" يتمتع بـه، وليوضـح بـأن معركـة الماديـة مازالـت طويلـة. لكـن مـا يجعلهـا مثمـرة هـو التطـور الهائـل فـي العلـوم الطبيعيـة والتزايـد المتصـاعد فـي السـيطرة علـى الطبيعـة. وإذا كنـا نلاحـظ اختـراق المثالية للمادية فلا بدّ من أن نلاحظ الاختراق الذي حققته الماديـة للمثاليـة أيضـاً. حيـث لا تنـي الميـول الماديـة تتعمـق فـي الفكـر المثالي وحيث غدت مقولات المادية أساس التحليل لـدى مفكرين مثاليين، ولكن بهدف خدمة المثالية.

(2)

المادية والبحث في المادة

يقول إنجلز "إن الفلسفة القديمة (اليونانية) كانت مادية مبكرة بدائية، ومن حيث هي كذلك لم تكن قادرة على إيصال علاقة الفكر بالمادة إلى النقطة الدقيقة، أما ضرورة إيضاح ذلك فقد قادت إلى القول بوجود نفس ممكنة الانفصال عن الجسد، وبعد ذلك إلى التأكيد على عدم فناء هذه النفس، وأخيراً إلى القول بإله واحد. فالمادية القديمة نفيت إذن من خلال المثالية"[6]. من الواضح أن إنجلز لا يتحدث عن اتجاهات وفلاسفة، بل إنه يتحدث عن "الفلسفة القديمة"، وهو كما يتوضح من النص يقصد "الفلاسفة الأول"، وعن فلسفتهم. وبالتالي فإنه يتحدث عن "المادية" و"المثالية" فيها، أي في منظومة فلسفية واحدة ليتأكد

6- إنجلز «ضد دوهرينغ» مصدر سبق ذكره 162.

بأن "الميل" أو "المنحى" المادي أو "البذرة" المادية فيها قد نفيت لمصلحة المثالية، وأصبحت بذلك فلسفة مثالية.

البحث في المادة:

إن كلمة مادية في النص يجب أن توضع بين مزدوجتين، لأنها تعني تناول المادة، وبالتالي، إنها لا تعني المادية بمعناها المحدَّد لدى إنجلز الذي أوردناه سابقاً، وإن كان فيها ملمس ما منها. وبالفعل فإن بدايات الفكر الفلسفي تناولت المادة، وحاولت تفسيرها من "ذاتها"، لكن "العدد الأكبر من أولئك الذين تفلسفوا لأول مرة، اعتقدوا أن أصول كل الأشياء توجد في شكل المادة" (أرسطو "ما بعد الطبيعة")[7] لهذا أعادوا "أصل العالم" إلى "المادة الأولى الكلية"، وهو الماء حسب طاليس، والـ Apeiron حسب أناكسمندر. وهم "يحددون ذلك الشيء باعتباره الأخير حيث أن الماء ثابت وأنه يتغير فقط في أعراضه (تأثيراته). لذلك فهم يفترضون بأن لاشيء ينشأ ويتلاشى حقاً، بحيث أن ذلك

---

7 -النصوص المأخوذة من الفلسفة اليونانية مقتطفة من، د. طيب تيزيني "مشروع رؤية جديدةللفكر العربي في العصر الوسيط" دار دمشق-دمشق.

النوع من الطبيعة يبقى محفوظاً دائماً... وبالمعنى نفسه لا ينشأ أو لا يضمحل أيضاًً شيء آخر، إذن ينبغي أن توجد طبيعة ما، سواء كانت واحدة أو أكثر من واحدة، يتكون منها كل شيء، بينما تظل هي نفسها ثابتة" (أرسطو ما بعد الطبيعة ص69).

لكن هذا التفسير للمادة من "ذاتها" كان يصطدم بالعجز عن وعي كنهها، وهذا مرتبط بمستوى التطور العلمي آنئذ (العلوم الطبيعية)، مما قاد إلى القول بوجود نفس ممكنة الانفصال عن الجسد، وأنها غير فانية، ومن ثم إقحام الإله في المنظومة الفلسفية هذه. إن البحث في "المادة" ضمن حدود مكوناتها، انطلق إذن من أساس شكلي (ظاهري)، من أساس حسي دون أدوات تجريدية منطقية، كما دون وعي علمي، وبالتالي فهو "لمْس" شكلي للمادة، يعتمد الملاحظة الحسية البسيطة (أي غير الخاضعة للاختبار)، ولأنه كان يعاني من ثغرات كبيرة فقد أقحمت النفس كما أقحم الإله. **ولأنه، بالتالي، لم يصمد أمام العقل البشري، الذي عجز عن وعي كنه المادة، تحول مسار البحث من البحث في "المادة في ذاتها" إلى البحث خارجها، وفي هذه الانتقالة نشأ التجريد، وتبلور المنطق. إنها الانتقالة التي أوجدت الفلسفة إذن.**

لكنها توضح أيضاً مستوى العلوم الطبيعية المنخفض، التي لم تكن تهيئ للوصول إلى تجريد نظري حول المادة، من "ذاتها"، وهي الحالة التي استمرت عقوداً طويلة، حيث بدا الانفصال واضحاً بين العلوم الطبيعية و"العلوم النظرية"، كما اعتبر العلم الطبيعي في درجة أدنى من "العلم النظري". وهو ما كرسته الفلسفة، التي أسماها أرسطو "العلم الأول"، وما كرس في الفلسفة مفهوم أن المادة عرض وأن "العقل التأملي"، "العقل المجرد" أكثر فعلاً ووعياً من "العقل العملي"، وهو وحده القادر على معرفة "الحقيقة المطلقة" التي هي "أصل العالم" و"أصل الأشياء والحركة" وبالتالي "أصل الوجود المادي". ولا شك في أن مستوى تطور "العلوم الطبيعية" الضحل آنئذ، كان يهيئ فقط لهذا الطريق "المثالي"، لأنه أولاً: عجز عن وعي كنه المادة، ولأنه ثانياً: قدم تصورات عمومية عنها، كانت تفتح الأفق لتفكير تأملي ومجرد، وبالتالي مثالي (أولاً ميتافيزيقي)، حيث أفضى البحث عن "أصل العالم" في إطار العلوم الطبيعية إلى تفسيرات مثالية نتجت عن عجزها عن تقديم تفسيرات "علمية"، مما أتاح للفلسفة تقديم تفسيراتها القائمة على أساس وجود "قوة غير طبيعية" (صورة الصور ـ الإله، الله)، هي وحدها القادرة على

معرفتها.

هنا نلحظ الانتقال من التفكير الحسي إلى التفكير العقلي، فقد فكر هؤلاء الأول حسياً بـ "الشيء" الموجود. وهذه هي أيضاً بداية الأسطورة، لأن الإنسان يفكر في محيطه أولاً، لأنه المحيط الملاصق له. ففي وضع اجتماعي بدائي يكون الوعي "هو، بادئ الأمر، مجرد وعي البيئة الحسية الأقرب ووعي الرابطة المحدودة مع الأشخاص الآخرين، والأشياء الواقعة خارج الفرد الذي يعي."[8]، وحسب ما يكمل ماركس "أن تكون الحياة العقلية والطبيعية للإنسان متعلقة بالطبيعة، ليس له معنى آخر، سوى أن الطبيعة تتعلق بذاتها، حيث أن الإنسان جزء من الطبيعة" (ماركس نقد الاقتصاد القومي في المخطوطات "الفلسفية الاقتصادية"). **والفلسفة بدأت من هذا المحيط الحسي قبل أن تحلق في التجريد، وتضيع في التأمل.**

إن تفسير الشيء انطلاقاً من ذاته هو الميل الحسي الأولي لدى الإنسان إذن، وبداية التفلسف كانت من هذه النقطة، ولهذا عبّرت عن تفسير ساذج، لأنه كان يفتقد أدوات التفكير بالأساس،

8-ماركس ـ إنجلز الايديولوجية الألمانية، دار دمشق ص39.

ولأنه بدأ من الشكل. وهذه نقطة ضعف التفكير الحسي المباشر آنئذ (وعموماً). وبالتالي فإن "مادية" الفلاسفة الأول تمثلت في محاولتهم البحث في المادة انطلاقاً من "ذاتها"، وهو تفكير ساذج في المادة، لا يرقى لأن يعتبر تفكيراً مادياً. إن منطلق التفكير مادي، لأنه يتناول المادة في ذاتها إذن، وفق هذا التفسير. هذا هو "الملمس" المادي فيه. لكنه تناول المادة بنظرة غير علمية مما عمق ميلاً "مادوياً" فيه، حيث جرى اعتبار النفس والفكر من المادة، ونتيجة تخلف "أدوات التحليل" وسذاجة التفكير "المادي" تحول هذا المنطق "المادي" إلى تصور مثالي عن المادة، وبالتالي يكون قد نفي "من خلال المثالية". لقد نفي، ليس من خلال مثالية أخرى، بل أنه نفي من خلال مثاليته هو بالذات، لهذا كان هذا المنطلق المادي لحظة عابرة في تطور الفلسفة، سرعان ما دفنت ليشاد صرح المثالية العظيم.

وبالتالي فإذا كان التفكير الحسي حول المادة وأصل العالم قد عانى من غياب "أدوات التفكير"، حيث تناول المادة من حيث هي شكل، وغرق في تفسير شكلي (ظاهري) لها، فقد كان ضرورياً من أجل وعي كنه المادة الانتقال إلى الفلسفة التي كانت المرتع الخصب لتطور "أدوات التفكير"، بدءاً بالتجريد

وصولاً إلى المنطق. وإذا كان الفلاسفة اللاحقون قد نهلوا من "الفلاسفة الأول" فقد أخذوا عنهم "المفهومات" والقوا ذاك المنطلق "المادي" في سلة المهملات، وفي هذه العملية تحولت المادة من جوهر إلى عرض، وبالتالي نشأت المثالية، لأن الذهن انشغل في التجريد فبعد عن الواقع، وأهتم بالفكرة فبعد عن المادة. ونشأ هذا الانشغال نتيجة العجز عن تفسير "المادة في ذاتها"، لكنه حقق انتقالة هامة في تبلور التجريد، والمنطق، والمفهومات، وهي الخطوة الضرورية لنشوء المادية، التي عادت إلى البدء، أي إلى "المنطلق المادي"، لكن عبر تراكم هائل في المنطق، ليتحول "المنطلق المادي" هذا إلى منهجية متماسكة. **إذن، لقد لعبت الفلسفة المثالية دوراً هائلاً في تأسيس البنية المنطقية التي تسهم في وعي الواقع، لكن بعد تجاوز "الضلال" بالعودة إلى "المادة في ذاتها"، إلى الواقع**.

لحظة ماركس

وهذا لا يعني أن تلك البنية المنطقية هي مادية منذ البدء، إنها لم تكن كذلك، فقد تطورت في إهاب مثالي (وأولاً ميتافيزيقي). لكن تحويلها من قبل ماركس هو الذي جعلها جزءاً من بنية

مادية، لهذا فإن دراستها في المرحلة السابقة لماركس تهدف إلى دراسة تطور المفهومات والمنطق، أي التراكم في المنطق الذي هيأ لنشوء المادية، لكن دون تناسي أنها ولدت في رحم مثالي. **هذه الدراسة تهدف أيضاً إلى التقدير العالي لدور الفلسفة المثالية، حتى بعد تشكل المادية، أليست هي مهيئة نشوئها؟** من هذا المنطلق **يمكن اعتبار الفلسفة أنها مسار العقل وهو يكتشف منطقه، لكن أيضاً مساره وهو يكتشف منطق الصيرورة الواقعية**، رغم أنه ظل يبحث في إطار مثالي، نتيجة ميله إلى تضخيم دوره بتقريره انه الفاعل، حيث كان منطلق الفلاسفة أن العقل هو الفاعل في الواقع والصيرورة الواقعية (بغض النظر عن الفكرة حول الفاعل التي نشأت في الفلسفة في المراحل المختلفة: الإلهُ، صورة الصور، الفاعل الأول، المحرّك الأول، العلّة الأولى...). وبالتالي من دون هذا الرقي الفلسفي لم يكن من الممكن العودة إلى "المادة في ذاتها" من أجل أن يصبح ممكناً تأسيس رؤية مادية متماسكة. لقد عادت الفلسفة إلى المادة باعتبارها جوهراً، وإلى الواقع باعتباره مبتدأ، انطلاقاً من بنية منطقية متبلورة، وفي ضوء تطور علمي ضخم، يهيئان لوعي كنه المادة، ووعي الواقع، وعياً علمياً.

المسافة هنا، تتحدّد في الفارق بين ميل "مادي" لكنه ساذج (حسي) وبالتالي مثالي، وبين رؤية مادية متماسكة. ولهذا حين الانطلاق، الآن، من هذه الرؤية المادية المتماسكة يجب أن نعي هذه المسافة، وأن نحدد الافتراق، أن نحدد أن "المادية" القديمة تلك لم تكن مادية إلا من حيث الميل للبحث في المادة انطلاقاً من ذاتها، لكن وفق منطق غير مادي (مثالي، ميتافيزيقي، وربما أسطوري)، وأن نعي أن هذه المسافة طويلة، تبلور ونضج فيها المنطق في إهاب مثالي، على الضد من المادة ومن الواقع معاً. وإذا كان المنطق هذا قد أصبح جزءاً مكوناً في الرؤية المادية، فإنه قد ولد في رحم المثالية، ووظف لخدمتها. **وبالتالي فإذا كان العقل قد اكتشف منطق الصيرورة الواقعية فقد اكتشفها على الضد من الصيرورة الواقعية الحقيقية، وفي التعالي عليها، وانطلاقاً من أنها فعل العقل ذاته، وليست حركة الواقع.** وبالتالي فإن مهمة ماركس كانت ذات أهمية عميقة في هذا المجال، لأنه كسر المرآة التي كانت تري الواقع مقلوباً، فقد حطم الفلسفة برمتها، نازعاً منها لبها (المنطق)، لكي يحدد فعل العقل في وعي الصيرورة الواقعية (الحقيقية)، ليس كما حدثت فقط، بل كما يمكن أن تحدث كذلك.

وبالتالي لا يمكن لنا أن نعتبر الجدل الذي هو منطق المادية،

بعد تبلورها، معبراً عن مادية ما قبل ذلك. لقد كان جزءاً من منظومة مثالية، وخدم أهدافها. الرؤية المادية، إذن، لم تُخلق "من العدم"، وإذا كانت الهيولى في الفلسفة القديمة تبقى مقولة مجردة، وبالتالي لا تتجسد إلا بفعل الصورة، فإن التراكمات الهائلة في المنطق التي نشأت في الفلسفة المثالية لا تصبح مادية إلا حينما تتبلور في الرؤية المادية، إنها قبل ذلك مقولات مجردة، وجزء مكوّن في منظومة مثالية. فهي ليست محدِّد المادية والمثالية، بل إنها تبع لمحدِّد، هو كما أشرت سابقاً، أولوية الفكر أو الواقع/ المادة. وبالتالي فاكتشاف التجريد، و بلورة الجدل، أو تبلور مفهوم المادة، أو العام والخاص، الجوهر والعرض، الجزء والكل، أو الشكل والمضمون، أو الصيرورة، أو المجرد والمشخص... إلخ، لم يعنِ، ولا يعني على الإطلاق اكتشاف المادية، أو أن هذه المقولات هي مقولات مادية، إنها تبع للمنظومة الفلسفية التي وجدت فيها. ولكنها غدت (مع تحوير ما) جزءاً من الجدل المادي، وبالتالي من المنظومة الفلسفية المادية.

ودراسة تاريخ الفكر من وجهة نظر مادية تهدف ـ في هذا المجال ـ إلى دراسة تطور هذه المقولات (التراكمات التي شهدتها) قبل أن تصبح جزءاً مكوناً من الجدل المادي. إنها إذن،

(آلـة) حسـب تعبيـر ابـن رشـد، محـدِّد مثاليتهـا أو ماديتهـا لـيس "ذاتهـا" بـل المنظومـة التـي توضـع فيهـا (أو تستخدم فيهـا). وهنـا بالضـبط يتحـدد معنـى فكـرة إنجلـز حـول أن الماديـة والمثاليـة يتحـددان فقـط فـي الإجابـة عـن السـؤال: أولويـة الفكـر أو المـادة؟ فالاتجـاه الـذي يجيـب بأولويـة الفكـر يوسـم بالمثاليـة، والاتجـاه الـذي يجيب بأولوية المادة يوسم بالمادية[9]، سواء استخدم هذه (الآلـة) أو لم يستخدمها. هذه الآلة تبلورت في الجدل الذي حوا كل المقولات السابقة ومقولات أخرى (النسبي والمطلق، التناقض، الكم والنوع، ونفي النفي مثلاً).

والافتـراق بـين "الماديـة" القديمـة تلـك والماديـة الحديثـة هـو كـالافتراق بـين المشـاعية القديمـة (الـنمط المشـاعي) والشـيوعية. فـرغم أنهمـا يشـتركان فـي غيـاب الملكيـة الخاصـة، إلا أن الهـوة واسعة بين البنية القبلية والإنتاج القبلي (الرعوي) والوعي القبلـي (الأسطوري ـ الخرافي)، وبين البنية الحديثة. ففـي الأولـى غابـت الملكية الخاصة لأنها لم تكن قد عرفت بعد، وهي تغيب هنا بعدما كانت قد جرى تملكها وترسخت خلال آلاف القرون. وبالتـالي قد

9-إنجلز، لودفيغ فويرباخ، مصدر سبق ذكره ص197.

غابت في الأولى نتيجة بدائية التطور، وحيث لم يتبلور الوعي بها بعد، وتغيب هنا بعد وجودها الطويل وتكرس الوعي بها، هذا إضافة إلى التطور الهائل في وسائل الإنتاج وفي الوعي (في البنية التحتية وفي البنية الفوقية عموماً)، وحيث أوصل هذا التطور الهائل إلى الوعي بالحاجة إلى نفي الملكية الخاصة لكي يستمر التطور ذاته.

إن "مادية" تلك الفلسفة كانت بدائية، بدائية المشاعة (وأنا هنا لا أربط تلك "المادية" بالمشاعة، لأنني أعرف أنها نشأت في مرحلة الانتقال إلى المجتمع الطبقي، ولكنني أحاول المقارنة فقط)، لهذا قلت أن كلمة "المادية" في نص إنجلز آنف الذكر يجب أن توضع بين مزدوجتين، فأنا لا أنفي وجود ميل مادي ما فيها، كونها تنطلق من "المادة كذات"، لكن كان يجب التوضيح بأنها لم تنشأ عن وعي مادي، بل نشأت كميل عفوي (وساذج) في دراسة المادة. ورغم ذلك فقد اشبعت مثالية، لقد "نفيت إذن من خلال المثالية" حسب ما يكمل إنجلز. لهذا "توجب عليها لاحقاً إخلاء الطريق لأساليب أو رؤى نظرية أخرى..."[10].

10-المصدر السابق ص162.

ولقد كان البحث في المادة آنئذ حسياً، الأمر الذي يعني أنه بحث شكلي، مما يحوّله إلى بحث مثالي، حيث تقوم المثالية على الأشكال، بينما ساعد نشوء التجريد والجدل على الانتقال إلى البحث في المضمون، وبالتالي بعلاقة الأشكال بالمضمون. ليصبح ممكناً وعي الواقع علمياً.

(3)

المادية والواقع المادي

يقول إنجلز "إن أعلى مسألة في الفلسفة بكاملها، مسألة علاقة الفكر بالوجود، علاقة الروح بالطبيعة، تمتد جذورها إذن، بدرجة ليست أقل من درجة أي دين، إلى التصورات المحدودة والغامضة عند الناس في مرحلة الوحشية"[11]، وهو هنا يتحدث عن علاقة الفكر بالكون، العقل بالطبيعة، ليؤكد أنها سابقة على وجود الأديان، ويردها إلى العصور البدائية. لكن ما علاقة ذلك بالميل المادي؟

إنجلز يؤكد العلاقة بين الفكر والكون، العقل والطبيعة، وهذه ليست هي المادية (أو الميل المادي)،حيث نتج كل الفكر (وإذا شئنا القول المادي والمثالي) من تفكير البشر بالكون والطبيعة.

11-إنجلز، لودفيغ فويرباخ، مصدر سابق، ص197.

لقد نشأ الفكر المثالي أصلاً نتيجة سعي البشر إلى وعي الكون والطبيعة، ونشأت الأسطورة من "عجز" البشر عن تفسير ظواهر الطبيعة، ونشأ الدين من "وعي" وجود قوة خارقة تفعل في الكون والطبيعة، كما نشأت الفلسفة من "وعي" وجود علة أولى تحكم الكون والطبيعة. وبالتالي لم يكن العقل البشري مفارقاً يوماً الكون والطبيعة، بل ظل يبحث عن المكونات الواقعية للوجود البشري، وهذا البحث هو الذي أنتج الأسطورة والدين والفلسفة والعلم، وأنتج "المثالية" و"المادية"، هذه الحقيقة هي ما حاول إنجلز تأكيده. لهذا أكد أن الفلسفة اليونانية حوت "البذور الأولى" لكل أساليب الرؤية اللاحقة. إن إيلاء أهمية "للممارسة الإنتاجية" للإنسان مسألة حاسمة في تشكل المادية، لكن هذه الأهمية تحددت في العصر الحديث فقط، حيث لم تكن تنظّر هذه المسألة سابقاً، ولم تعتبر أساس وجود البشر. ولا شك في أنها أفضت إلى وعي الإنسان لمقدرته على السيطرة على الطبيعة، ووعي المجتمع، لكن التراكم الذي أفضى إلى هذه النتيجة احتل ساحة التاريخ السابق للعصر الحديث: التراكم الخاص بالتطور العلمي التقني ومنه العلوم الطبيعية، والفكر (الفلسفي)، لتتبلور فكرة أسبقية الوجود المادي على الفكر، وأن الفكر هو انعكاس

لهذا الوجود، وهي الفكرة التـي أسست لنشوء الانقسـام فـي الفكر إلى مادي ومثالي، حسب ما أوضحت سابقاً.

المادية والوجود الحقيقي:

وإنجلز يشير إلى أن علاقة الفكر بالكون، العقل بالطبيعة، لها جـذورها فـي الأديـان كمـا فـي التصـورات البدائيـة. وحسـب الماركسية فإن الأديان هي التعبير عن الوعي الوهمي للواقع، وبهذا استحقت بأن تكون مثالية، حتى وهي تحوي تشريعاً لتنظيم المجتمع وقوانين لضبط حركتـه، لأن كل هذا التنـاول "المـادي" للوجـود البشـري لا يعطـي لهـا أيـة صـفة ماديـة، لأنهـا منحكمـة لتصور مثالي عام. وهنا أعيد التأكيد على فكرة أن البشر يسعون في كل الأحوال إلى حل مشكلاتهم الواقعيـة، إنهم لا يسعون إلـى "التخيـل" أو "التـوهم"، بـل يسـعون إلـى وعـي واقعهـم، وبنـاء التصـورات التـي تسـاعدهم علـى تطويره. لكن ذلـك لا يقود إلـى الاستنتاج بأنهم،وهم يسعون إلى وعي واقعهم وتطويره، ينتجون فكراً مادياً. فهذا استنتاج تعسفي، شكلي، لا يعطـي للتـاريخ أيـة قيمـة، ويسـقط مفهـوم التـراكم إسـقاطاً تعسـفياً. لأن إنتـاج الفكـر المـادي ارتـبط بـالتراكم الهائـل المتحقـق فـي مقـدرة البشـر علـى

السيطرة على الطبيعة، بوعي كنهها، والتأثير فيها لتحويلها. وهذه لم تتحقق سوى في العصر الحديث (الأحدث/ الراهن). لأن هذه الانتقالة في السيطرة على الطبيعة وتحويلها هي التي أسست (هيأت وحضّرت) لتجاوز فكرة القوة الخارقة المسيّرة للطبيعة والمجتمع من خارجهما، وبالتالي إلى اعتبار أن وعي البشر (الفكر وضمنه فكرة الله والعلة الأولى) ما هو إلا نتاج واقعهم (وجودهم)، وبأن هذا الوجود له حركته الخاصة (الداخلية)، التي عني الفكر (وهنا الفكر المادي تحديداً) باكتشافها، كما عني ببناء التصورات المادية القادرة على التأثير فيها، بينما ظل الفكر المثالي يبحث عن العلة الأولى خارجهما.

وإذا كانت فكرة الله مرحلة في تطور هذا الفكر، فإن فكرة العلة الأولى مرحلة أخرى، وآخرها كانت بأن ألقى الفكر على ذاته هذه المهمة.

لهذا كان هيغل هو القمة في الفكر المثالي، لأنه حدد بوضوح بأن الفكر هو الأساس والصانع، والخالق. وكانت هذه انتقالة مهمة في وعي البشر لأنها نزعت الفعل من قوة فوق الفكر لتجعلها في الفكر ذاته، وهي هنا اعترفت بدور البشر متجاوزين كل ما هو فوق البشر، لكن في صيغة مقلوبة، لأنها ظلت تنظر

إلى الواقع (الوجود) عبر المرآة (التي هي العقل عند هيغل)، وبالتالي اعتبرت بأن معكوس الواقع (الوجود) في المرآة هو الحقيقة، أما الواقع الحقيقي (الوجود الحقيقي) فقد تبدى لها كصورة (كظلال). لهذا فإن دور ماركس في إيقاف هيغل على قدميه تمثل في التأكيد على الوجود الحقيقي، على الواقع، على البشر، وعلى نشاطهم الواقعي، أي على العمل والإنتاج والعلاقات الاقتصادية، والوجود الاجتماعي، والثروة، والطبقات، بالتالي على الفكر والدولة. ليصبح الوجود الحقيقي هو الأساس والصانع والخالق، والفكرة هو الصورة، التي تتكون عبر العقل. المادية هي هذه الأفكار، وهي لا تساوي الوجود الحقيقي، بل هي صورته كما انعكست في الذهن (العقل)، **وبالتالي فإن الوجود الحقيقي لا يساوي المادية**، التي هي صورة هذا الوجود الحقيقي في الذهن. المادية تصوّر (رؤية) للوجود الحقيقي ينطلق من أولوية الوجود الحقيقي على الفكر، لكنها في هذا تضم كل أشكال المادية (المادية المبتذلة، المادية الميكانيكية، المادية الجدلية)، وبالتالي تنطلق من أسبقية الوجود المادي على الفكر.

المادية والوجود المادي:

لكن يجب أن أوضح بأن الوجود المادي لا يساوي المادية كفكرة، كما أن الفكر لا يساوي المثالية. فالمادية والمثالية مقولتان تقعان في مجال الفكر، وبالتالي فإن أسبقية الوجود المادي لا تعني على الإطلاق أسبقية المادية على المثالية، بل على العكس فإن تاريخ الفكر يوضح بأن المثالية هي الأسبق في مجال الفكر كما أوضحنا للتو. ولا يبدو ذلك غريباً، لأن البشر رسموا لواقعهم (لوجودهم) تصوراً وهمياً نتيجة عجزهم عن وعيه، وهنا يعطى العمل كل أهميته في تحقيق التطور المادي والفكري. فبالعمل استطاع البشر السيطرة على الطبيعة، لأنه أوجد تراكماً من النشاط البشري أسهم في وعي كنه الطبيعة، وفي تحويلها، وكذلك في وعي العلاقات الرابطة بين البشر أنفسهم. وفي هذا تتحدد، أيضاً، أسبقية الوجود الواقعي على الفكر، لأن نشاط البشر من أجل تأمين عيشهم، عبر العمل، يحقق تراكماً معرفياً في وعي الواقع، كما يحقق تحويلاً في الواقع ذاته، يسهمان في تحقيق تطورٍ في الفكر. وبالتالي فإن الوجود الواقعي المتحول (الصيرورة) يفضي إلى تحول في الفكر.

إن التراكم في الوجود الواقعي إذن يفضي إلى تراكم في الفكر أفضى أخيراً إلى تحقيق الانتقالة من المثالية إلى المادية،

لكنه أيضاً لم يفض إلى نفي المثالية، ولقد أشرت إلى الإشكالية التي نشأت نتيجة ذلك، وبالتالي فالبشر مازالوا في بداية الطريق لرسم تصور مادي للواقع، إنها عملية بدأت للتو.

إن تحوير فكرة إنجلز يمكن أن ينبع من تشويه "مادوي" و"اقتصادوي" يتساوى فيه الوجود الواقعي والمادية كتصور فكري، كما يتساوى فيه الفكر والمثالية، وبالتالي الفكر و(اللاواقعية). وانطلاقاً من هذا التساوي يؤسس التناقض بين "المادية" و"المثالية" في تاريخ الفكر النظري، لتبدو المسألة كأنها مسألة تناقض بين الوجود الواقعي والفكر، بين "الممارسة الإنتاجية" والوعي الذي يحكمها. بينما أسست "الممارسة الإنتاجية" لكل فكر (الأسطورة والدين والفلسفة)، بل إنها أسست في لحظة محددة من تطورها للمثالية في شتى صورها، ولم تتأسس المادية كتصور إلا حينما وصلت "الممارسة الإنتاجية" إلى مستوى محدَّد من تطورها، وأعني نشوء الصناعة كوسيلة إنتاج أساسية.

وبالتالي لقد كانت الأسطورة، كما كان الدين، وكذلك الفلسفة القديمة، هي الوعي الذي حكم هذه "الممارسة الإنتاجية" في مراحل متتالية من تطورها، فلم يتوصل الوعي البشري إلى فكرة

الله إلا نتيجة تفكيرهم بحياتهم الواقعية، ومنها "ممارستهم الإنتاجية". لقد فكروا بالزلازل والفيضانات والمطر والزرع، والليل والنهار والحياة والموت، وجود الماشية والشجر والماء والتراب، وهذه كلها ذات صلة بحياتهم وممارستهم الإنتاجية، وهي جزء من وجودهم الواقعي، لكنهم اعتقدوا أنها نتاج قوة خارقة. لأن كل هذه الأحداث أكبر من قدرتهم الواقعية، ومغلقة على وعيهم، هذه القوة الخارقة أسميت لدى الأديان: الله. والقرآن يعتبرها (وأكثر منها) الدلالة "الملموسة" على وجود الله، لهذا يكرر كلما أشار إلى بعضها العبارة "أفلا تعقلون"، "أفلا تتقون"، ليبدو الوجود الواقعي كأنه الصورة لحقيقة وجود الله ـ الصانع القادر، الفاعل... إلخ. وبالتالي لتبدو الفكرة كأنها صانعة الواقع، رغم أنها من صنع البشر. فهل نعتبر أن تلمس البشر لمشكلات واقعهم يمثل ميلاً "مادياً" متجاهلين كنه تفسيرهم لهذه المشكلات، الذي هو مثالي بجدارة؟

هنا تنشأ مشكلة تتمثل في التناقض بين "رصد" الواقع، "تصوير" الواقع، وبين علة وجود هذا الواقع، أي التناقض بين الصورة التي تبدو للبشر فيما يتعلق بوجودهم الواقعي (وهي صورة تقريرية) وبين الجوهر الذي يتشكل منه هذا الوجود.

طبعاً نلاحظ حسب التحوير السابق أن الصورة بدت كميل مادي، والجوهر بدا كميل مثالي، وبالتالي غدا التناقض بين الصورة والجوهر، وفي كلا الحالين تنكشف فظاظة في تشويه المادية، لأن الصورة لا تعبر عن ميل مادي، وإلا كان وجود البشر دلالة على "ماديتهم". إن تأكيد وجود الزلازل والفيضانات والمطر والزرع... الخ، لا يعبّر عن ميل مادي على الإطلاق، بل يعبّر عن تحديد ما هو موجود، المهم هنا هو تحديد كيف تحدث الزلازل والفيضانات، وكيف يسقط المطر وينبت الزرع... إلخ. وهنا يأتي دور العقل ومن ثم الفكر، هنا و- هنا فقط - في تحديد الـ "كيف" هذه تتحدد المادية والمثالية. الأديان أعادتها إلى فعل الله الخارق، لكن العلوم الطبيعية حددت التفسير المادي لها. ذات الشيء يمكن أن نلمسه في المجتمع، إن تقرير وجود أغنياء وفقراء، ووجود تناقض بينهم، لا يعبر بالضرورة عن ميل مادي. فالأديان التي تقرر ذلك تعزوه إلى الله أيضاً، وبالتالي تعطيه طابعاً مقدساً لأنه نتاج الإرادة الإلهية، وفي هذا التفسير تكمن مثاليتها، أما المادية فتعزوه إلى مبدأ وجود الملكية الخاصة، التي تفضي بالضرورة إلى اللا مساواة.

المشكلة تتقوّم إذن، في التفسير المعطى للوجود الحقيقي،

وليس في تقرير هذا الوجود، إن تقرير الوجود الحقيقي لا يساوي المادية، وإلا أصبحت تصوراً مبتذلاً. **المادية هي، كما أشرت، إقرار بأولوية الوجود الحقيقي، وبتفسيره من داخله، وفق حركته الداخلية**. والمادية والمثالية تنطلقان من تفسير هذا الوجود، لأن الفكر بالأساس هو هذا، أي إنه التفسير لهذا الوجود الواقعي، أي للطبيعة والمجتمع. لكنهما تعزيانه إلى فاعلين مختلفين. وبالتالي فإن الوجود الواقعي لا يعني وجود المادية كبديهية، وإلا لما كانت المثالية هي أساس كل الفكر السابق لنشوء المادية في العصر الحديث، واستمرار تمكنها رغماً عن هذا النشوء، نشوء المادية، الذي احتاج إلى تراكم هائل في التطور الواقعي، وفي تطور الفكر المثالي. وترسيخها وسيادتها يحتاجان إلى تطور آخر في الواقع وفي الفكر معاً.

تاريخ الفكر النظري من زاوية المادية:

ولا شك في أن دراسة تاريخ الفكر النظري من زاوية المادية يهدف إلى تحديد هذا التراكم، لكن ليس من زاوية البحث (التنكيش) عن الميول المادية في تاريخ الفكر. وربما كانت هذه مسألة مفيدة إذا عولجت من زاوية تحديد موقعها في إطار البنية

المثالية للفكر، بل بالأساس من زاوية التراكم الهائل المتحقق في الفكر المثالي ذاته، لأن هذا التراكم هو الذي أفضى إلى نشوء المادية الحقة، أي الماركسية. لكن تحديد التراكم الذي أفضى إلى نشوء الماديات المختلفة ارتبط أكثر ربما بتطور العلوم الطبيعية، التي أسهمت أيضاً في تطور الفكر المثالي، وتطور هذه العلوم بلا شك ارتبط بتطور التقنية (وسائل الإنتاج)، وبالتالي العمل. وهنا تنكشف مسألة تتعلق بالعلاقة بين تطور العلوم الطبيعية وتطور وسائل الإنتاج، أليس تطور وسائل الإنتاج مرتبط بتطور العلوم الطبيعية؟ إن تداخلاً يحدث هنا، حيث العمل وحده لا يفضي إلى تطوير وسائل الإنتاج، لهذا استمر المحراث اليدوي قروناً طويلة هو أداة الحرث الوحيدة، ولم يتحقق تجاوزه إلا بفعل التطور في العلوم الطبيعية، أي بفعل دور العقل البشري، وهكذا في كل أشكال التقنية. وربما كان هذا الدور للعقل البشري هو أساس تبلور الفكرة حول أولوية دور الفكر، المنتج من "العقل"، في الفكر المثالي. لكن هذا الفكر تجاهل مسألتان: الأولى تتعلق بأولوية الوجود الواقعي، ومن ثم العمل، والثانية تتعلق بالعلاقة "الدائرية" (لكن الجدلية) بينهما، حيث يفضي العمل إلى نشوء الحاجة إلى تطوير التقنية، وهذا ما تقوم به

العلوم الطبيعية، في المستوى الذي يحدده العمل، ومن ثم يصبح التطور الجديد في التقنية جزءاً من العمل، ليفضي العمل إلى نشوء الحاجة من جديد إلى تطوير التقنية وهكذا. وبالتالي فإن تطور العلوم الطبيعية مرتبط مباشرة بالعمل، فيكون العمل هو القاعدة/ الأساس، أما الفكر فيلحق تطوره تطور العلوم الطبيعية.

لكن تحقيق انتقالات في الفكر لا تتحقق سوى بتحقيق تراكم معين في العلوم الطبيعية، وفي كل ذلك سنلمس ميولاً مادية. لكن المسألة الهامة هنا، هي تحديد البنية الفكرية التي تحتضن هذه الميول، وكما قلت سابقاً فإن هذه الميول نتاج تناول الفكر (كامل الفكر) للطبيعة والمجتمع، لأن البشر يفكرون في واقعهم، وبالتالي فإنهم ينتجون "فكراً مادياً" ما، حتى وهم يغوصون في المثالية، لكن من الضروري التمييز الدقيق بين ما أسميته "التقرير" لما هو واقعي، وبين الأفكار المادية، فالفكر هو البحث عن العلاقات بين الأشياء، وهو ما أسميته سابقا: التفسير، والتقرير هو الإقرار بالأشياء ذاتها.

كل فكر هو نتاج إعمال العقل في الواقع، وبالتالي فإن تناول الواقع ليس الدليل على مادية الفكر، بل إن تحديد مادية أو مثالية الفكر "ينبع من تحديد أولوية الواقع أو الفكر"، وهاتان مسألتان

يجب أن تكونا واضحتين. فالأديان تناولت الواقع (الطبيعة والمجتمع) كما أشرت سابقاً، لكنها مثالية (ومثالية مطلقة). ومفكرو الرأسمالية يبحثون في الواقع، ويضعون الحلول الواقعية، لكنهم حينما يحددون أساس الصيرورة يعيدونها إلى الفكر، وهنا تكمن مثاليتهم. **ولا شك في أننا سنجد "ميولاً مادية" في الأديان، كما في الفكر البرجوازي، لكنها ستكون كذلك حينما نضعها، نحن الماديين، في سياق مادي، بينما هي جزء من تكوين مثالي (بنية مثالية)، إنها الشكل الظاهري لهذا التكوين (ويمكن أن نقول الشكل العارض فيه)**، وهذا ما يحاول بليخانوف توضيحه فيما يتعلق بهيغل، الذي "ما كان يستطيع أن يتصور التاريخ إلا من وجهة نظر مثالية،"والذي "استخدم كل جبروت عبقريته والموارد العملاقة لجدليته كي يضفي طابعاً علمياً نوعاً ما على التصور المثالي للتاريخ، وكانت نتيجة المحاولة الإخفاق"، لكنه "في كل مرة التجأ إلى الاقتصاد كان ينقذه من العثرات التي أوقعته مثاليته فيها"[12]، و"عندما تبين أن المثالية سلاح عديم الجدوى والنفع"[13]. لكن ما ظل عند هيغل

12-بليخانوف، المؤلفات الفلسفية، م1 دار دمشق، ص369.

13-المصدر نفسه، ص347.

حدساً طارئاً عبقرياً بصورة أكثر أو أقل قد بات عند ماركس استقراء علمياً دقيقاً[14]. وهيغل كما نعرف يعيد جميع العوامل الفاعلة في الحياة الاجتماعية إلى الروح المطلق، ولقد حدد ماركس هذه المسألة على النحو التالي: "عند هيغل، إن حركة الفكر التي يشخصها تحت اسم الفكرة هي مبدعة الواقع، هذا الواقع الذي لا يعدو كونه الشكل الظاهري للفكرة، وعندي، على العكس، إن حركة الفكر ليست سوى انعكاس الحركة الحقيقية، المنقولة إلى دماغ الإنسان والمترجمة فيه"[15]. وإذا كان هيغل مبلور الشكل الأرقى للجدل قد لجأ إلى التحليل الاقتصادي لينقذ تحليله المثالي من المآزق الذي كانت المثالية تقوده إليها، فإن الجدل كما التحليل الاقتصادي ظلا مثاليين، ولم يسجل له أية ميول مادية، رغم أن الجدل كما التحليل الاقتصادي كانا مرتكز ماركس في تأسيس الجدل المادي، والرؤية المادية للتاريخ. **ولقد فهم الجدل، كما فهم التحليل الاقتصادي كأساس للتصور المادي، فقط، حينما بلور ماركس تصوره المادي**. ولقد غدت

14-المصدر نفسه، ص374.

15-كارل ماركس، رأس المال، دار التقدم، موسكو، م1، ج1، ط1، 1985، ص27، مع ملاحظة اختلاف الترجمة.

كذلك في تصور ماركس وليس في تصور هيغل الذي ظل مبلور التصور المثالي الأرقى، وممثله دون منازع. لأن هذه "الميول المادية" ظلت "الشكل الظاهري للفكرة" حسب نص ماركس السابق الذكر، وبالتالي فلدى هيغل إن "الميول المادية" هي الشكل الظاهري للفكرة، لأن الواقع هو الشكل الطارئ، وهنا تكمن فعالية هذه "الميول المادية". لذا فهي لا تعتبر "ميولاً مادية" ضمن بنية الفكر المثالي الهيغلي، **ولقد غدت مادية حينما أكد ماركس على أنها الأساس، حينما أعاد الفكر لموقعه الحقيقي كانعكاس لحركة الواقع، وصاغ في ضوء ذلك تصوره المادي**. إن الاستعانة بالاقتصاد وبالواقع لا تعبر إذن عن ميل مادي في الفكر، ما دام الفكر مثالياً، ويصبح الفكر مادياً حينما ينطلق من أولوية الواقع وأساسيته فقط.

وبالتالي فإن البحث عن "الميول المادية" في تاريخ الفكر، يجب ألا يلغي مثالية ذلك الفكر ولا مثالية رموزه، فقد تطور الفكر في إطار المثالية، وظل ممثلوه مثاليين. وبالتالي يجب أن يهدف البحث إلى تحديد التراكمات التي أفضت إلى تبلور المادية، في إطار الفكر المثالي ذاته، داخل الفكر المثالي ذاته، مع التأكيد على أن هذه "الميول المادية" كانت مثالية داخل هذا

الفكر، ولم تُعرَف كـ "ميول مادية" إلا بعد تبلور المادية مع ماركس. وهذا التحديد يلغي مسألة التناقض بين "المادية" و"المثالية" في تاريخ الفكر، ليسمح لنا بالقول إن التناقض نشأ بين مثالية ومثالية، وكان جوهره تحديد القيمة المعطاة للعقل البشري (الدين والفلسفة وصراع العقل والنص، العلة الأولى في الفكر، والله في الدين، وبين الرأي و الحديث والعقل والنقل في الدين). فالواقع الحقيقي وفق هذا الفكر ليس سوى الشكل الظاهري له، وهو الدلالة على وجود الله وفعله في الأديان، لتندرج التصورات حول هذا الواقع الحقيقي في هذا الفكر، وضمن هذا السياق.

لهذا فإن البحث عن "الميول المادية" في تاريخ الفكر وفق الطريقة السائدة، يؤسس لمادية مبتذلة تحمّل الأفكار أكثر مما تحتمل، وتتوهم صراعاً لم يحدث، لأنها تنطلق في الأساس من تصورات حول الواقع والاقتصاد و"النشاط الإنتاجي" يعبر عن ابتذال للمادية، وينحو منحى اقتصادياً مبتذلاً (اقتصادوياً) يساوي بين المادة والفكر، الواقع والفكر. إن تبلور المادية حديثاً أفضى إلى نشوء اتجاه مادي مبتذل يسعى إلى تأويل بعض الأفكار والميول في تاريخ الفكر بهدف تأكيد قِدَم المادية، بينما يكمن

الهدف من زاوية الرؤية المادية في تحديد التراكمات التي أفضت إلــى تحقيــق الانتقالــة النوعيــة بنشــوء الماديــة الحديثــة. ولهــذه التراكمات منحيان، **الأول**: هو التراكمـات فـي الفكـر المثـالي التـي أفضـت إلـى تبلـوره فـي شـكله المكتمـل مـع هيغـل، و**الثـاني**: هـو التراكمات في الميول (إذا جاز القول) الماديـة التـي نشـأت كجـزء عضـوي فـي الفكـر المثـالي، والتـي هيـأت لتبلـور الشـكل المكتمـل للمادية الحديثة.

ولا شـك فـي أن النـزوع إلـى "تضـخيم" الميـول الماديـة فـي تـاريخ الفكر نبـع مـن "ضـعف" الماديـة الحديثـة فـي صـراعها مـع المثالية. إن حداثتها فرضت ربما هذا التضـخيم مـن وجـود ودور المادية في تاريخ الفكر، مما دفع بعض الماديين إلى الاستناد إلـى التــاريخ فــي مــواجهتهم للمثاليــة، بــدل الاســتناد إلــى قــوة الماديــة كمنطق ورؤية، وبدل الاستناد إلى تطور العلوم الطبيعيـة. وبـذلك فقد أضعفوا المادية بدل أن يعززوا من قوتـها، لأنهم أسسوا ماديـة مبتذلة، اختلطت مفاهيمها وتفكك منطقها وتشـوهت مقولاتـهـا، لأن قوة المادية الحديثة لا تتأتى من تـاريخيتها، فهذه تـاريخيـة مشـكوك فيهـا، بـل مـن "اشـتقاقها" مـن، واسـتنادها إلـى، التطـور العلمـي الهائـل الـذي تحقـق فـي العصـر الحـديث، كمـا مـن انطلاقهـا مـن

الفلسفة المثالية في قمة نضوجها، وبالتالي تبلورها كرؤية علمية لأول مرة في تاريخ الفكر النظري، ولهذا أكد ماركس أنه يسعى إلى تدمير الفلسفة هادفاً إلى تأسيس العلم النظري[16].

قوة المادية إذن، لا تنبع من تاريخها، بل تنبع من دورها النظري وفعلها الواقعي في الوقت الراهن. وبالتالي فإن الدفاع عن المادية بهذه الطريقة يظهرها كمادية مبتذلة ويقدمها بشكل كاريكاتوري، فيضعفها من حيث يسعى لتبيان قوتها. لأنه يجعلها تنحو منحى غير مادي على الإطلاق، ويجردها من قوة منطقها.

16-إنجلز، ضد دوهرينغ، مصدر سبق ذكره، ص162.

(4)

الفكر والوعي

إن الانطلاق من "صراع القطبين" في تحديد تاريخ الفكر النظري أفضى إلى تشويه فكرة إنجلز خاصة في تقويمه الفلسفة اليونانية، حين يقول: "إنه في الأشكال المتعددة للفلسفة اليونانية توجد مسبقاً تقريباً كل أساليب الرؤية اللاحقة بشكل بذري أوّلي..."[17]. لهذا يجري الاستنتاج بأن الفلسفة اليونانية تشكلت من هذين العنصرين "المادي" و"المثالي" ، كما يتوضح من دراسة "تاريخ الفلسفة"، من وجهة نظر "المادية" (وأصر هنا على المزدوجين). ولكن نص إنجلز يتحدث عن بذور أولى لأساليب الرؤية اللاحقة، وجدت في الفلسفة اليونانية، ولم يتحدث عن العنصرين: "مادي" و"مثالي"، لقد تحدث عن بذور فقط،

17-انظر «ضد دوهرنغ»، دار التقدم، موسكو، ص11.

والبذور غير منفصلة عن البنية العامة للفلسفة اليونانية التي قامت على أساس وجود علّة أولى، وبالتالي على أساس مثالي. لهذا فإن إنجلز يتحدث عن بذور الاتجاهات اللاحقة في الفلسفة المثالية اليونانية، ولا يتحدث عن عناصر مستقلة متضادة، أو عن "قطبين متصارعين". حيث لم تكن "المادية" قد تشكلت كقطب أو كاتجاه فلسفي، بل وجدت كـ "بذرة" أولى فقط، ولم تعتبر كذلك إلا بعد ما تشكلت المادية كاتجاه في العصر الحديث، بينما كانت وقتئذ جزءاً من بنية مثالية كما كررنا مراراً.

لهذا وجدنا أن الصراع الواقعي، صراع الطبقات، عبّر عن ذاته على مستوى الفكر، ليس بالتضاد بين "المادية" و"المثالية" بل بالتضاد بين "مثالية" و"مثالية"، وفي كثير من الأحيان بالاستناد إلى ذات "المثالية"، ولكن بتأويل مختلف هو "مثالي" كذلك. وبالتالي حين نبحث في تاريخ الفكر النظري يجب أن نلاحظ أن الانتقال من الأسطورة (بكونها الشكل الأولي لوعي البشر) كان نحو المثالية في شكلين: الفلسفة والدين، حيث أعيد كل فعل اعتقد العقل البشري أنه خارج مقدراته التحليلية إلى قوة أعلى، قوة خارقة (الله في الدين، والعلة الأولى في الفلسفة). هذه هي مرحلة سيادة "الميتافيزيقيا"، حيث ارتبط التحول الواقعي في

وعي البشر بقوة فوق البشر، خارج الطبيعة، أي فوق الطبيعة. كان الله هو هذه القوة في الدين، لكن الله الذي يتجلى في "الكلمة" (في المسيحية "في البدء كان الكلمة". وفي الإسلام، الأمر الإلهي التكويني "كن") وكان "اللوجوس" هو هذه القوة في الفكر اليوناني (العقل الذي لا يظهر نشاطه إلا من خلال الكلمة)[18]، واللوجس هو اللغة ذاتها، أي الكلمة. وكانت "خاصية" تاريخ الفلسفة هي في الصراع بين الله واللوغوس. الدين/ النص والعقل/ اللغة، أو كما تبدّت واضحة في العصر الإسلامي بين الدين والفلسفة، حيث كانت الفريضة حين نشأ الإسلام هي أن الدين هو شكل الوعي الوحيد، ثم، مع ترجمة الفلسفة اليونانية، تجاورا انطلاقاً من اللا تناقض بينهما،لكن مع إعطاء الدين أولوية على الفلسفة، ثم اتحدا (مع ابن سينا) ليبدوا كشكلين لوعي حقيقة واحدة، ليتضادا من جديد (مع الغزالي) الذي سعى لنفي الفلسفة لمصلحة الدين، ومع أبو العلاء المعري الذي سعى إلى نفي الدين لمصلحة الفلسفة. ومن ثم ليتجاورا في صيغة أرقى (مع ابن رشد)، تعطي الأولوية للعقل/ الفلسفة على الدين (يؤكد

18-نصر حامد أبو زيد «النص، السلطة، الحقيقة» المركز الثقافي العربي، ط1، 1995، ص83.

ابن رشد أن الفلسفة هي "عقل" الخاصة، والدين هو "عقل" العوام)...[19]. وفي ذلك نلاحظ تصارع "مثالية" ضد أخرى، ومنه تطورت العقلانية في الفلسفة الأوروبية الحديثة، لتصل إلى تنحية الدين وتكريس "العقل" كـ "علة أولى".

وبهذا فقد اتخذت المثالية شكلاً آخر، لا يشك في أنه هيأ لنشوء المادية، ولولا نفي "الميتافيزيقا" وتكريس العقلانية لما تحققت هذه الانتقالة التي استندت، بلا شك، إلى الميول المادية السابقة، ومن ثم فإن نفي العلة الأولى ما فوق البشر هو الذي هيأ للبحث في مشكلات (وجود) البشر بمنطق جديد كان ينزع إلى تكريس الطابع الموضوعي للبشر، الطابع الطبيعي للبشر، ومن ثم أفضى إلى نشوء المادية التي استندت إلى النقد الأكثر جذرية للدين (فيورباخ)، والتبلور الأكثر تجريداً واتساقاً للفلسفة (هيغل). وأعيد التأكيد هنا بأن التطور الهائل في العلوم الطبيعية سارع في هذا التشكل للمادية، لأنه أوصل إلى وعي مقدرة البشر السيطرة على الطبيعة، كما أسهم في التطور الهائل للفكر ذاته، وللفكر "المادي" تحديداً (المادية الميكانيكية).

19-ابن رشد، فصل المقال، دار المشرق، بيروت.

في هذه اللحظة (كما أوضحت سابقاً) نشأ "قطبان"، اتجاهان متضادان، وأصبح أساس تحديد مثالية أو مادية الفكر ناتج عن تحديد ما إذا كان الفكر الذي هو منتوج "العقل" البشري هو المحدِّد لصيرورتهم، أم أن الواقع الذي يعيشه البشر(وبضمنه العمل البشري، ووعي البشر) هو المحدِّد لهذه الصيرورة.

في المثالية يغدو الفكر الذي ينتجه البشر قوة فوقهم تحدِّد واقعهم، كما تحدِّد الصيرورة العامة للتقدم. وفي هذا يتضح أن المثالية الحديثة هي بنت المثالية القديمة، لكن المثالية القديمة كانت تجعل الفكرة التي هي منتوج "العقل البشري" فوق "العقل" فتلغيه، لهذا كانت "العلة الأولى" فوق "العقل"، وذات سطوة عليه، بينما ظل "العقل" في المثالية الحديثة هو "العلة الأولى"، لهذا كانت العقلانية هي منتوجها. أما في المادية فإن الواقع هو محدِّد الصيرورة، وأن الفكر هو انعكاس الواقع، لكن دون نكران الدور الذي لـ"العقل البشري" في هذه الصيرورة.

تضاد الطبقات، تضاد الفكر

وهنا نلحظ كم هو وهمي التاريخ المبني على تضاد القطبين،

الـذي كرّسـته رؤيـة مبتذلـة للماديـة، هـي "الماديـة التاريخيـة"، انطلاقاً من رؤية مشوشة للعلاقة بين الواقع والفكر، تستند إلى التبسيط اللفظي والميكانيكية معاً، حيث فسرت فكرة ماركس، بأن التاريخ هو "تاريخ صراع الطبقات"[20] بما يشير إلى "تخندق" واضح للطبقات، وفي الوقت نفسه تبلور وعيين متضادين، وبالتالي فإن كان وعي الطبقات المسيطرة مثالي، فإن وعي الطبقات المضطهَدة مادي بالضرورة. ولهذا كان تاريخ الفكر النظري هو تاريخ تضاد لقطبين: مثالي ومادي. وبهذا يشكَّل تاريخ الفكر النظري في قالب مثالي. إن التحولات الكبرى في التاريخ تحققت في قالب مثالي (الفلسفة ـ الإمبراطورية اليونانية، والثورة البرجوازية، والأسطورة، الإمبراطورية الرومانية... والدين، الإمبراطورية العربية الإسلامية). كما أن الصراع الطبقي ـ إلى ما قبل نشوء المادية ـ كان يبرز كتضاد بين "مثاليتين". وفي الغالب كانت الطبقات المضطهَدة تمتلك وعياً أكثر "مثالية" من الطبقات المسيطرة. حتى في العصر الحديث، لم ترتبط بعد الطبقات المضطَهَدة بالمادية، إلا كاستثناء. إن هذا

20-كارل ماركس وفريدريك إنجلز «بيان الحزب الشيوعي» دار التقدم، موسكو ص40.

التحديد يفتح على مسألة الاستقلالية النسبية للفكر، كما يفتح على مسألة العلاقة بين الوعي والفكر. حيث رغم التقدم الهائل المتحقق في الواقع فقد ظلت المثالية راسخة رغم تغيُّر أشكالها، لهذا يمكن ملاحظة ثلاثة أشكال لها: الأسطورة والميتافيزيقا والعقلانية. ولا شك في أن تطوراً هائلاً تحقق في إطار البنية الفكرية طيلة تاريخ الفكر النظري، لكن هذا التطور ظل محاطاً بقشرة مثالية سميكة. وأيضاً كان هذا الانتقال في أشكال المثالية يعبر عن تطور هائل في الفكر.

إن انقسام المجتمع إلى طبقات متصارعة لم يفضِ إلى انتصار الطبقة المضطهَدة، بل كان يفضي إلى الدمار حسب إشارة لماركس وإنجلز في "البيان"[21]. وهو لم يفضِ إلى تبلور وعي طبقي لديها، لهذا ظل التطور في الفكر منوطاً بمثقفي الطبقة المسيطرة، وبالتالي ظل يصاغ في قالب مثالي. وظل يسهم في تشكيل وعي الطبقات المضطهَدة، التي ظلت، كما

21- وضع ماركس هذه النتيجة كاحتمال، أما الاحتمال الآخر فهو انتصار الطبقة المضطهَدة. لكن دراسة التاريخ توضح أن كل أنماط الإنتاج المكتملة لم يفض الصراع الطبقي سوى إلى الدمار. حول رأي ماركس يمكن مراجعة ماركس/ إنجلز «البيان الشيوعي» دار التقدم، موسكو، (د.ت) ص41.

لاحظت سابقاً تنطلق في صراعها ضد الطبقة المسيطرة من فكر هذه الطبقة، بالتزامه كما هو أو بتأويله. لهذا كان انتقادها للطبقة المسيطرة ينطلق من "خروجها على النص"، أي بعدم تطبيقها لفكرها أو من تأويلها الخاطئ لهذا الفكر (دون أن ننسى الاستثناءات في تاريخ الصراع الطبقي).

الوعي الجمعي:

أريد أن أقول: إن الوجود الواقعي للطبقات لم يفضِ إلى نشوء وعي مطابق لكل منها، مما كان يظهر أن "وعياً جمعياً" هو ما كان ينشأ، لقد نشأت الأسطورة بصفتها "الوعي الجمعي" هذا، كما نشأ كل من الدين بصفته "الوعي الجمعي" هذا، ونشأت العقلانية بصفتها "الوعي الجمعي" هذا أيضاً. ولكن كل منها حوا تأويلات مختلفة، لم تعبر بالضرورة عن الوجود الواقعي للطبقات المتصارعة. بمعنى أنها عبّرت في بعض الأحيان، فقط، عن هذا الوجود الواقعي للطبقات المتصارعة.

مع نشوء المادية الحديثة فقط بدأ هذا الميل للتعبير عن الطبقة المضطَهَدة، ليتطابق وجود الطبقة ووعيها. لكن ذلك ما زال في مجال الإمكانية، الأمر الذي يفتح على تاريخ جديد، لكي يتحقق

يجب أن تفرض المادية الحديثة ذاتها كـ "وعي" مسيطِر، وفي هذا تجل للاستقلالية النسبية للفكر. في هذه المسألة قد يبدو أنني أنقاد إلى شطط مثالي، حاولت نقده سابقاً، لكنني أفهم هذه المسألة ضمن حدين: **الأول** أن المادية الحديثة لم تتبلور إلا نتيجة التطور الواقعي المتحقق (نشوء الصناعة، والتطور العلمي الهائل السابق والمرافق لها)، وهو تطور أصاب الاقتصاد والمجتمع عموماً، كما أصاب ـ نتيجة ذلك ـ الفكر. و**الثاني** أن الفكر لا يتحول إلى قوة مادية إلا إذا وعاه البشر، حسب قول ماركس، بمعنى أن "اكتشاف" فكرة لا يعنى صحتها، بله سيادتها، إلا إذا تطابقت مع المصلحة الواقعية للبشر، وهنا يطرح السؤال: كيف يمكن صياغة وعي البشر مادياً؟ بهذا تتوضح حدود استقلالية الفكر، وارتباطه الدائب بالواقع وأولوية الواقع عليه.

إن الواقع المادي للبشر (الظروف الاقتصادية الاجتماعية) لم ينتج ـ إلى وقت قريب ـ سوى المثالية، لأن حدود مقدرة سيطرة البشر على الطبيعة كانت ضيقة، حيث تمثل العمل الإنساني في العلاقة المباشرة بالطبيعة (الزراعة)، وكانت الحرف ما زالت بسيطة، وكذلك التطور العلمي، لهذا كانت "العلة الأولى" ما فوق الطبيعة هي المسيطرة في الوعي، وعلى مستوى الفكر. ولا شك

في أن تطور مقدرة البشر في إخضاع الطبيعة (تطوير الحرف والعلوم الطبيعية) كان يوسع شيئاً فشيئاً للعقلانية على مستوى الفكر، وبدرجة أقل في "الوعي الجمعي". لقد عبّرت الأسطورة، ومن ثم الدين والفلسفة عن "الوعي الجمعي" هذا، لهذا حوت كل تناقضات الواقع، وميوله. لقد مثلت وعي البشر للطبيعة والمجتمع مصوغاً في قالب مثالي، لهذا ظلت تناقضات البشر الواقعية ملفوفة في إهاب مثالي، مما كان يجعلها مشوشة في مستوى الفكر، وربما معدومة، سوى من ميول لدى هذا الفيلسوف أو ذاك، أو في هذا الدين أو ذاك (الإسلام مثلاً دعا إلى مساعدة الفقير ولم يدع إلى إلغاء الفقر، كما دعا إلى الرفق بالعبيد ولم يدع إلى إلغاء العبودية، ودعا إلى رفض الترف ولم يدع إلى منع الثراء). بمعنى أنها كانت تتبدى كميول في الفكر السائد فقط، دون أن يكون ممكناً لها أن تتمظهر في شكل أفكار متضادة.

هذا الواقع جعل الشمولية هي سمة الفكر كما جعل الإطلاق سمته الأخرى (والمطلق في الدين يتخذ شكل المقدس). لقد ظلت المثالية "مستقلة" عن التطور الهائل الذي تحقق في الواقع، لهذا استمرت عقوداً طويلة، لكن استمرارها مرتبط بالواقع ذاته. ولقد

نشأت المادية فقط حينما تحقق تطور واقعي هيأ لنشوئها، وبهذا أسس نشوؤها لمرحلة جديدة، حيث أصبح من الممكن للطبقات المضطَهَدة أن تؤسس وعياً مستقلاً عن وعي الطبقات المسيطرة، ومضاداً له.

ما أود قوله هو أنه رغم انقسام المجتمع إلى طبقات مذ تشكل المجتمع الطبقي، فإن فكراً واحداً هو الذي تبلور رغم كل الميول التي يحملها، هذه الميول التي تتبدى في بعض التصورات والأفكار دون البنية العامة لهذا الفكر، الذي يقوم على أساس مثالي (أولوية الفكر). وإذا كان هذا الفكر قد عبر عن "الوعي الجمعي" فقد كان نتاج مفكرين عبروا عن الطبقة المسيطرة، لكنه كان يحمل ميلاً لـ "عقلنة" ممارسة هذه الطبقة. هذا الميل هو ما كانت الطبقات المضطَهَدة تتعلق به باعتناقها مجمل الفكر المسيطر. في هذه الميول في الفلسفة اليونانية كمنت البذور الأولى لكل أساليب الرؤية اللاحقة، منها تحقق التراكم الذي أفضى إلى نشوء تلك الأساليب.

أحادية الفكر هي إذن سمة قرون طويلة، وكانت تعبر ـ كما أشرت ـ عن "وعي جمعي" مثالي فيما يتعلق بوعي الطبيعة والمجتمع، وعن وعي الطبقة المسيطرة التي كانت توظف هذا

التصور المثالي لتكريس سيطرتها. ولما كانت الطبقات المضطَهَدة تتحرك داخل البنية الفكرية ذاتها، فقد كان هدفها ـ في الغالب ـ إعادة إنتاج التكوين الطبقي ذاته (التكوين الاقتصادي الاجتماعي). لقد "توحدت" رؤية الطبقات المختلفة للعالم في بنية ميتافيزيقية، وعُبِّر عنها في صيغة بسيطة (عامية شعبية). كما في صيغة عالمة (الفلسفة)، وكذلك في صيغة متوسطة (الدين). ولهذا كان الدين أقرب إلى "الوعي الشعبي"، ولهذا شكّله "الوعي الشعبي". أما الفلسفة فقد كانت الشكل الأكثر "عقلانية" لهذا الوعي.

الوعي والفكر

ألمس هنا مسألة العلاقة بين الوعي والفكر، الوعي هو مستوى إدراك البشر، والمفاهيم التي تحكم رؤيتهم للطبيعة والمجتمع (للكون عموماً)، وهو مؤسس على "دور" بسيط للعقل، والكثير من المروي (العادات والتقاليد والثقافة الشعبية.... والدين)، بمعنى أنه الخبرة المكتسبة من الحياة، والمنقولة شفاهة. و"العقل" في هذه الحالة يلعب دور الناقل (وبالتالي فهو إدراك حسي مباشر). هذا هو "الوعي الشعبي" كما أسميته سابقاً. أما

الفكر فهو الوعي المصوغ "عقلياً"، ولهذا يكتسب بنية أرقى، وله آلياته و"قوانينه" الخاصة (وفي هذا يبرز جانب من استقلاليته النسبية). من هنا تنبع ضرورة التمييز بين مستوى الوعي، الوعي الذي ينتج عفوياً، ويلعب التوارث دوراً أساسياً فيه، حيث يتلقى الإنسان وعي محيطه، ويعمل - بالتالي - من داخل منظومته. والوعي العقلي المنتج بفعل بشري (الدراسة). هذان المستويان هما مما أنتج (في العصر الإسلامي مثلاً) التمييز بين الخاصة والعامة، الخاصة الذين يتعاملون مع الفكر (الفلسفة والعلوم الرياضية...) عقلياً، والعامة الذين يكررون "الوعي الشعبي" وبالتالي يلتزمون "ما يتلى عليهم". وهذه المسألة هي التي سادت قروناً طويلة، لكن بعد طرد الفلسفة، وتكريس الدين كبنية فكرية وحيدة (المسيحية والإسلام)، وكذلك تكريس رجال الدين (الفقهاء والكهنة) بصفتهم هم الخاصة. في هذا الوضع يتساوى "الوعي الشعبي" و"الوعي الجمعي" أو - بشكل أدق - يسيطر "الوعي الشعبي" على "الوعي الجمعي"، بإلغاء الفكر (الفلسفة والعلوم الطبيعية)، لتصبح سمة الوعي الوحيدة أنه نقلي، تكراري، (دائري)، وفيه يختلط الأسطوري بالديني، والأسطوري والديني بالعقلاني. ولقد عبرت السياسة (السلطة)

عن هذا الوعي، ولم ترتق إلى مستوى الفكر، سوى في لحظات ضيقة. لهذا ظل الفكر (الفلسفة) هامشياً في "الوعي الجمعي".

مع الرأسمالية بدأ تحول الفكر من كونه هامشاً إلى كونه "وعي السياسة"، فقد شكل وعي الطبقة المسيطرة، وبالتالي سلطتها، لكنه أيضاً أخذ يصبح قوام "الوعي الجمعي"، فقد أزاح الدين بصفته وعياً وسيطاً ومهيمناً من السلطة أولاً من خلال العلمانية، ومن ثم توسع تأثيره في "الوعي الشعبي" بفعل إصلاح نظام التعليم (تطويره وتحسينه) كما بفعل التطور التقني الذي أصاب (الواسطة) بين الفكر والبشر (الطباعة)، لكن، كان أساس هذا التأثير هو التطور التقني ذاته. **وهنا ألمس مسألة اعتقد أنها هامة وهي أن تطور "الوعي الشعبي" خاضع بشكل مباشر للتطور الواقعي، لتبدو الاستقلالية وكأنها للفكر وحده دون الوعي، وهذا التحديد هو الذي يوضح المنتوج المباشر للواقع، والمعبر عنه ضمن بنيته القائمة**، أما الفكر فإنه يعبر عن أحد خيارين (أو الخيارين معاً): الأول، يتمثل في صياغة البنية القائمة في قالب نظري، وهو الشق الأول من فكرة هيغل "كل ما هو واقعي عقلاني"، والأخر يتمثل في صياغة "الحلم"، أي القالب النظري الذي يعبر عن ميل الواقع للتحول، وهو الشق

الثاني من فكرة هيغل "كل ما هو عقلاني واقعي". وهذا الأخير هو الذي يحظى باستقلالية نسبية تؤهله للتأثير في الواقع من أجل تحقيق الصيرورة الواقعية، وافتقاده يجعل هذه الصيرورة عرجاء، وبالتالي يجعل التناقضات الواقعية تفضي إلى الدمار.

ويكون دور الفكر في هذه الحالة هو كسر بنية الوعي السائد من أجل تأسيس وعي جديد، ولا تتحقق هذه العملية إلا في حالة تناوله الواقع. بمعنى التأكيد على أولوية السياسي، بتحديد الأهداف الواقعية التي يطمح البشر إلى تحقيقها، لكن وعي البشر يعيد صياغتها في إطار بنية وعيهم، فهي تخضع لآليات هذا الوعي، ولأن الفلسفة القديمة اهتمت بقضايا الكون الكبرى ولم تطرح ذلك ظلت هامشية، رغم أن الفلاسفة قدموا تصورهم لـ "الدولة المثالية"، بينما لعب الدين هذا الدور، لهذا كان "جوهر" الدين (الجوهر الواقعي للدين) هو تحقيق عملية التغيير الاجتماعي، حيث دعا إلى "وراثة الأرض" من قبل المؤمنين (اليهودية والإسلام)، وحوا تشريعاً لنظام اقتصادي اجتماعي وسياسي جديد، أو دعا إلى أنسنة الإنسان (المسيحية) دون تعارض مع الخط الأول ذاك. من هذا المدخل (الذي هو الأساسي والواقعي، والمعبر عن واقعية الأديان) استطاع إعادة صياغة الوعي البشري. وحين

لعبت الفلسفة الحديثة هذا الدور استطاعت إعادة صياغة وعي البشر أيضاً.

وأؤكد هنا أن الفكر كان نتاج وعي فئة ضيقة للواقع في لحظة محددة، وبالتالي فهو الانعكاس لهذا الواقع، لكنه الانعكاس الذي فتح إمكانية تغيير الواقع وتحويله، وحدَّد طبيعة "الوعي الجمعي" اللاحق الذي توافق مع التحول الواقعي في لحظة محدَّدة، لكن "الوعي الجمعي" لم تعد صياغته إلا بعد تحقيق هذا التحول. ولقد تحقق التقاء الفكر الذي يحمل "حلماً" والوعي الراهن (الوعي الشعبي المتوافق مع البنية القائمة) أول ما تحقق في مجال السياسة، أي في مجال السعي لتحقيق "الحلم"، في مجال تحقق الصيرورة، دون أن يغير من بنية الوعي. إن تحوله إلى قوة "معارضة" يجعله قادراً على التأثير في الوعي، لكن ضمن إطار محدد، بينما يجعل انتصاره وتحوله إلى مركز السيطرة قدرة تأثيره أوسع، من خلال أصلاح نظام التعليم، و"الجهاز الأيديولوجي للسلطة" وأشكال الثقافة الأخرى. لكن تحقق هذا التحول في الوعي متعرج، ويحتمل الانتكاس، لأنه مرتبط أيضاً بالصراع الواقعي بين الطبقات. لكن حالما تفرض طبقة نفسها كقوة مسيطرة تفرض فكرها ووعيها كفكر ووعي

جمعيين (وهو ما أسميته سابقاً "الوعي الجمعي" الذي يفترض - كما أوضحت - وجود تكوينات وتأويلات من داخل بنية هذا الوعي).

أساس هذا الفارق بين الفكر والوعي يكمن في أولوية إعادة إنتاج الحياة (المعيشة) بالنسبة للبشر، حيث يكون العمل من أجل إنتاج ضروريات الحياة هو العمل المركزي، لأنه بدون الحياة لا حاجة إلى الفكر، بل لا إمكانية لوجوده. وهنا تكتسب مقولة العمل أهميتها، والعمل هو الانتقالة الهامة التي تحققت لتنقل البشر من حياة "القطيع" الذي يبحث عما تنتجه الطبيعة "عفوياً" إلى الإنسان المنتج الذي يحوّل الطبيعة بما يحقق له الحصول على ضروريات الحياة. وكانت هذه الانتقالة بداية سيطرته على الطبيعة، وتحويلها بما يحقق له العيش مستقراً، بمعنى تقليص خضوعه لظروف الطبيعة. وهو كلما قلص هذا الخضوع يزيد شيئاً فشيئاً من سيطرته على الطبيعة. ولا شك في أن اكتشافه لوسائل ضرورية لحياته كان في البدء "صدفة"، لكنها عبّرت عن خبرات حسية تراكمت طيلة قرون طويلة.

إن هذه الأولوية جعلت من العمل أساس نشاط البشر، لهذا ظل تراكم الخبرة محصوراً في الإفادة البسيطة، وبالتالي التطوير

البطيء لوسائل الإنتاج، وليبقى الوعي حسياً نتيجة أن "العقل"، الذي هو أحد خصائص البشر المميزة، ظل محدَّداً في العمل من أجل إعادة إنتاج الحياة، لهذا ظل تراكم الوعي بطيئاً أيضاً، وبالتالي ظلت بنى "فكرية" مستقرة قروناً طويلة. إن استمرار كون العمل هو النشاط البشري المركزي كان يجعل "استقرار" الوعي مسألة بديهية، لكن درجة الاستقرار النسبي التي تحققت في مجال حصول البشر على ضروريات الحياة، ومن ثم الانقسام إلى طبقات، أفسحا في المجال لنشوء الفكر نتيجة التقسيم الواقعي الذي تحقق بين العمل اليدوي والعمل الذهني، بين العمل والتفكير. حيث تخصصت فئات للتفكير في الطبيعة والمجتمع، وفي الإفادة من التجارب، كما في وعي الكون، بمعنى أن مهمتها كانت تفسير الواقع بمعنى ما، ولقد كانت متداخلة مع ممارسة العلوم والطب، كانت هي ذاتها. هنا نلاحظ أن "الوعي الجمعي" يقوم على "منطقين" (آليتين): حسي وعقلي، ليصاغ في منظومتين: "الوعي الشعبي" والفكر، ولا شك في أن خضوع الأول للواقع كبير، لهذا فهو يعيد إنتاج الوعي ذاته، كما أن تأثير الثاني في الواقع كبير أيضاً، لهذا فهو يتأثر بالتطور الواقعي، ويتطور معه، ومنه تبدأ إعادة صياغة "الوعي الشعبي". لكن

تداخلاً يحصل بينهما، مما يوجد أنماطاً وسطى، فإذا كان الفكر يسعى لإعادة تكوين الوعي فإنه - أيضاً - يخضع للشروط الواقعية للوعي، مما يفضي إلى انحطاط الفكر، لكن هذه هي - كما يبدو - صيرورة تطور "الوعي الجمعي"، وهو ما يبرز الرابط بين الفكر خصوصاً و"الوعي الجمعي" عموماً والواقع.

وإذا كان الفكر يؤثر في "الوعي الشعبي" بطريقة ما عبر "الثقافة" فإن تأثيره الحقيقي يتحقق عبر السياسة. فإذا كان نشوء فكرة يؤدي إلى تأثير ما يتحقق عبر المثاقفة، فإن تأثيرها الفعلي يتحقق عبر السياسة تحديداً، لأن الفكر المتأثر بالتطور الواقعي يتحول إلى وعي لطبقة ما (أو لفئة ما)، وبالتالي يتحول من طابعه المجرّد إلى تصور لتحول واقعي ما، وهنا يتحول إلى سياسة. بمعنى أنه يتحول إلى تصور لواقع جديد، لهذا يؤسس لتشريع جديد يمس بنية المجتمع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية، ليس مناقضاً بالضرورة، للتشريع القائم، لكنه يحمل جديداً ما (مثل فكرة التوحيد/ الله، الملكية والعلاقات الاقتصادية عموماً، النظام السياسي، الأخلاق، المرأة...)، وربما يكون مناقضاً له أيضاً. لكن الفكر أيضاً يتحول إلى آلية لتحقيق هذا التشريع. عملية التحول هذه توجد في الواقع وعيين: "الوعي

الشـعبي"، المتوافـق مـع الواقـع، لكـن المتمـرد عليـه، و"الـوعي/ الحلم" المتوافق مع حالة التمرد هذه، لكن المتجاوز للـوعي الـذي يحمله "المتمردون"، ويتمظهر في وعـي فئـة قليلـة (أقليـة). وكمـا أشرت سابقاً فإن توافق "الـوعي/ الحلم" مـع حالـة التمـرد الناتجـة بالأساس عن التناقض الطبقي القائم في بنية المجتمع، يفضي إلـى تحـول "الـوعي/ الحلـم" إلـى واقـع حينمـا تعـاد صـياغة "الـوعي الشـعبي" استناداً إلـى الفكـر، عبـر طـرق شـتى (النظـام السياسـي الجديد الذي يفرض تشريعات جديدة تلزم البشر وتحقق تحولاً في ممارسـاتهم، وبالتـالي وعـيهم، ونظـام التعلـيم الـذي يفرضـه هـذا النظـام انطلاقـاً مـن الأسـس الفكريـة التـي يحملهـا، الجهـاز الأيديولوجي مختلف الأشكال عبر التاريخ...).

لكـن إعـادة الصـياغة هـذه لا تنـتج الانـدماج بـين "الـوعي الشـعبي" و"الـوعي/ الحلـم" بالضـرورة، بـل تنـتج وعيـاً يتوافـق والتطور الواقعي ذاتـه. وبهذا يتقارب الـوعيين بقدر التطـور فـي بنية المجتمع. فإذا كـان الفكـر يعبـر عـن تصـور "نقـي" (خـالص) لما يجب أن يكونـه الواقع، فإنـه "يتشـوه" فـي الواقـع ليبـدو أحيانـاً صـيغة كاريكاتوريـة لـه. فيعـود الانفصـال مـن جديـد بـين الفكـر والوعي، ومن ثـم يعـود الفكـر لفرض ذاتـه، وهكـذا.. يرافق ذلـك

هزات في بنية السلطة إلى أن يتأسس "وعي جمعي" جديد، حيث يحدث التوافق النسبي بين الفكر والوعي.

في فقرة سابقة تحدثت عن "الوعي الجمعي" كتوافق بين الفكر والوعي في إطار المنظومة المثالية التي تحكمهما، لكنني هنا أتحدث عن التوافق في المفاهيم الأساسية التي ينتجها الفكر مع "الوعي الشعبي" حيث تغدو أساس تشكله. لكن هذه العملية تفضي إلى إعادة صياغة الفكر، تلفظ منه كل ما هو "وهمي"، وبالتالي تحدث مطابقة أعلى بين الواقع والفكر، ومن ثم بين الواقع و"الوعي الشعبي"، ليعود هو المعبر عن الواقع حسياً، وبالتالي المطابقة بين الواقع و"الوعي الجمعي" بمعنييه السابقي الذكر، ليستقل الفكر من جديد وفق منطق جديد، أي لينتقل إلى صيغة أرقى.

لاحظنا ذلك مع الرأسمالية، حيث أنتج وجودها الموضوعي في بنية إقطاعية نشوء الفكر المعبر عن مصالحها، وكانت الفلسفة الحديثة والفكر السياسي والاقتصادي الحديثين، الشكل الخالص لهذه المصالح، لكن عملية تحول هذا الفكر إلى "وعي جمعي" احتاجت إلى قرون، فلم تصبح العقلانية "وعياً جمعياً" سوى منذ قرن تقريباً، كذلك لم تصبح الديمقراطية والعلمانية

جزءاً من النظام السياسي ومن "الوعي الشعبي" سوى منذ بداية القرن العشرين. ولقد طرد الفكر البورجوازي من "السلطة" منذ بداية تشكل السلطة البورجوازية، وأعادت الطبقة المسيطرة إنتاج وعي مهجن. لكن الفكر البرجوازي المنتج من جديد والذي سيطر أخيراً كان قد لفظ كل أوهام البرجوازية في مرحلتها الطفولية، حيث حلت "اللاعقلانية" محل العقلانية، والاحتكار محل شعار "دعه يعمل"، والديمقراطية المكرسة لاحتكار الطبقة البرجوازية محل الديمقراطية العامة...إلخ. فقد أسست الطبقة المسيطرة فكرها المعبِّر حقيقة عن مصالحها دون أحلام أو "أوهام". وهذا الفكر هو الذي صاغ "الوعي الشعبي". وإذا ما قورن هذا الفكر بالفكر البرجوازي "الأصلي" سيبدو أنه كاريكاتور عنه، حيث كان الفكر "الأصلي" يحوي أحلاماً إنسانية أوسع مما تحقق في الواقع.

ولأنه كان يحوي أحلاماً إنسانية أوسع مما تحقق في الواقع كان المهيئ لنشوء المادية، التي مثلت انتقالة هائلة لا في حمل الحلم الإنساني فقط، بل وفي زاوية النظر إلى الواقع، لهذا مثلت النفي الأيجابي لا للمشروع البرجوازي فقط، بل وللمثالية عموماً. فقد استبدل الفكر البرجوازي مثالية بأخرى (ولا شك في أهمية هذا الإبدال)، لكن المادية نفت المثالية كزاوية نظر، وأسست لنشوء

رؤية علمية للواقع. لكن سنلاحظ أنها تعرضت للمصير ذاته حينما تحولت إلى مشروع سياسي منتصر. فقد أسس الفكر المادي لمشروع سياسي تطابق ومصلحة فئات واسعة من الشعب، كانت تطمح في إطار ظروف الاضطهاد التي كانت تعيشها، كما انطلاقاً من وعيها القروسطي (المثالي من الدرجة الأولى - اللاهوتي) لتحقيق مصالح متفاوتة الوضوح والغايات، لكنها في كل الأحوال كانت تسعى لتغيير واقعها بما يحقق لها التقدم (متفاوت المعاني). وحالما انتصرت أزيح الفكر وظل المشروع، ثم أعيدت صياغة الفكر، فقد ذاب الفكر المادي في الوعي المثالي، فتكرست أولوية الفكر لزاوية النظر، وأعيد إنتاج المفاهيم انطلاقاً من ذلك. هذا هو نمط "الماركسية السوفيتية". لكن أيضاً أعيدت صياغة "الوعي الشعبي"، ولأن العملية لما تنته بعد، فإن هذا الوعي لم يستقر، وبالتالي مازال للفكر المادي دوره، لأن التكوين الاقتصادي المتحقق لم يتطابق مع وعي ضروري لاستقراره، وبالتالي كان طبيعياً أن تحدث هزات، لكنها تهيئ لإنتاج وعي مطابق.

وكل ذلك يوضح أن الفكر يتحدد بحدود الواقع، وأن كل ما هو "وهمي" يلفظ في إطار الصيرورة الواقعية، لكن لا بد من أن أوضح أن الفكر يمكن أن يكون "وهمياً" وبالتالي يلفظ دون أن

يؤثر في الواقع، لأنه في الأساس إجابة خاطئة عن مشكلات الواقع لا تضيف ما يسهم في فاعلية الصيرورة. كما أنه يمكن أن يكون "حلماً"، أي إنه إجابة صحيحة على مشكلات الواقع، لكنه يحوي "أوهاماً"، وهذه الأوهام هي ما يلفظ في إطار الصيرورة. وكذلك يمكن أن يكون "واقعياً"، أي إنه لا يفعل سوى إعادة إنتاج الواقع ذاته، وهو هنا فكر محافظ لأنه لا يفعل سوى أنه يقوم على أساس وقف الصيرورة، ولكل من هذه الأنماط أساسه الواقعي.

إذا كانت ثنائية الواقع/ الفكر هي التي تحظى بالاهتمام فقد حاولت أن أجعلها "ثلاثية حيث أدخلت الوعي كعنصر ثالث، رغم أنه مستوى أدنى من الفكر، حيث أن الوجود المادي للبشر يفضي بتوسط العقل (التفكير) إلى نشوء الفكر، لكن هذا الوجود المادي أيضاً يفضي بطريقة حسية إلى نشوء الوعي، لكن الفكر المنتج يسهم في إعادة تشكيل الوعي، لينفي ذاته، وليتحول من منتوج عقلي إلى معطى حسي، لينتج الوجود الواقعي الجديد (الصيرورة الواقعية) فكراً جديداً يسهم في إعادة تشكيل الوعي الجديد، وهكذا. وهنا نلحظ تحول الحسي إلى عقلي، ومن ثم العقلي إلى حسي، وهكذا في إطار صيرورة ارتقاء الوعي البشري.

(5)

إذا كنت قد حددت المسألة الأساسية في الفلسفة بأنها تكمن في تحديد أولوية الواقع/ المادة أو الفكر، وبالتالي بدا أنني ساويت بين الواقع والمادة، فإنني ولإزالة هذا اللبس أشير إلى أن هذه المسألة هي مسألة مركبة، المستوى الأول فيها هو علاقة الفكر بالمادة، وهذه مسألة فلسفية عامة، مجردة، فهي تشمل علاقة أية مادة بالفكر، وهذا هو طابع التجريد فيها. إنها، بالتالي العلاقة بين المادة المجردة والفكر المجرد، وتحديد أولوية المادة هنا على الفكر كان الخطوة الضرورية للانتقال إلى المادية، لكن هذا الانتقال تحقق ضمن الفلسفة، أي قبل نشوء المادية، ولهذا لم يكن محدِّداً كافياً لنشوئها، إنها هنا مبدأ فلسفي. هذه مثلاً مشكلة فيورباخ، وقبله المادية الميكانيكية. لقد كان هذا التحديد إذن، الخطوة الأولية للانتقال إلى تحديد آخر، أكثر أهمية لأنه يتعلق بالوجود (المجتمع)، وأقصد تحديد الأولوية في العلاقة بين الفكر

والواقع. في هذه النقطة يكمن التباس ما، فالواقع، حسب ما أشرت إليه في أكثر من فقرة سابقاً، هو كلية الوجود، بمعنى أنه الوجود البشري في نشاطه من أجل إعادة إنتاج الحياة (العمل)، وفي علاقاته المبنية على العمل (الطبقات) وعلى مجمل الظواهر القائمة بينها (القبيلة، القومية...)، وعلى صيغة التنظيم الذي يحكم كل ذلك (الدولة)، ولكن أيضاً الوعي الذي ينتجه هذا الوجود، وتؤسسه تلك العلاقات والظواهر (أي الفكر).

وبالتالي، فنحن هنا، حينما نتحدث عن علاقة الواقع بالفكر نكون قد نزلنا من منطق التجريد العام الذي هو في صلب الفلسفة، إلى التجريد في إطار محدَّد هو التكوين البشري، وبالتالي نكون قد تجاوزنا الفلسفة إلى علم المجتمع. إننا إذن نتحدث عن علاقة الفكر بالواقع في إطار المجتمع، حيث "دُمِّرت" الفكرة التي تجعل فوق المجتمع قوة فاعلة تحدِّد مساراته. وبالتالي أصبح المجتمع بنية فاعلة، ويتحدد الفعل فيها، في العمل والفكر. العمل الذي ينتج حياة البشر، والفكر الذي يحدِّد وعيهم لحياتهم، ومصالحهم فيها، ويساعدهم على تطوير هذه الحياة. إنه بالتالي، نشاط البشر الإنتاجي، ونشاطهم الذهني. وضمن هذا النشاط تطرح علاقة الواقع/ الفكر. وهنا إذن

"يسحب" الفكر من الواقع، وهو تحديد إجرائي (لأن الفكر كما أشرت جزء من الواقع أيضاً) يهدف إلى تحديد "الفاعل الأول" ضمن الواقع، أي تحديد حدود فاعلية كل من الفكر و"الوجود الطبيعي" وما ينتج عنه من نشاط وعلاقات. ويهدف إذن، إلى تحديد أولويات الفعل ضمن الواقع ذاته، انطلاقاً من أن لا فعل خارج هذا الواقع. فالوجود الواقعي ينتج فعله. وهنا تعني المادية أنها الواقع "غير الواعي" الواقع بمعزل عن وعي البشر، وهذا تحديد إجرائي أيضاً. كما سنلاحظ تالياً أنه يهدف إلى تحديد أولوية الوجود وما ينتجه من نشاط وعلاقات على الوعي/ الفكر، لكنه أيضاً تحديد مبدئي. وربما كان تحديد العلاقة بأنها بين الوجود والوعي/ الفكر يزيل التباساً، لكن في كل الأحوال فإن الوجود والوقع يشتملان على الوعي/ الفكر. وهنا تكمن الدقة في التحديد، وتجاهلها كان يفضي إلى ميل "مادوي"، حيث يجري التعامل مع الوجود/ الواقع كأنه بدون وعي/ فكر، أو أن الوعي/ الفكر يسكن خارجه، مما كان يشوه وعي (تفهم) مقولة أخرى، هي مقولة الذات (الفكر)/ الموضوع (الواقع)، فالفكر الذي هو نتاج الوجود الواقعي، والذي هو وعي هذا الوجود، يتحول في لحظة إلى "فاعل". لكنه أيضاً يتحول إلى موضوع، وهو ما

نلاحظه في العلوم الطبيعية (المكتشفات العلمية)، لكن نلاحظه أيضاً في المجتمع. فمثلاً فكرة إلغاء العبودية التي كانت حلماً يوماً ما، تتحول شيئاً فشيئاً إلى موضوع، حيث انتفت العبودية من بنية المجتمع. كذلك فكرة سيادة الصناعة وتحولها إلى وسيلة الإنتاج الأساسية، التي تحققت مع انتصار الرأسمالية. وهكذا أفكار العلمانية والديمقراطية، التي كانت "حلماً" رافق الفلاسفة الرأسماليين الأوائل لكنها أصبحت "واقعاً" في النظم الرأسمالية، وكذلك "حلم" إلغاء الملكية الخاصة الذي تحول مع انتصار الاشتراكية إلى جزء مكون من الواقع.

هنا تكمن أهمية تحديد أن الفكر جزء من الواقع، وفي التحديد أن أولوية الوجود الواقعي على الفكر هي مسألة مبدئية عامة، لأنهما معاً لا يسمحان بتجاهل دور الفكر، وبالتالي بتجاهل مقولة العلاقة بين "الذات والموضوع"، ومن ثم "تجميد" الجدل الذي يربط بين الذات والموضوع، بتحول الذات (الفكر) إلى موضوع (واقع)، ولكن أيضاً بتحول الموضوع (الواقع) إلى ذات (فكر) (وهو المسمى حلماً حيث يفرض المجتمع الحاجة إلى تقدم ما، لكي يستمر في تطوره، هذا التقدم يكون في لحظة حلماً، لكنه يتحول إلى واقع، لأن استمرار حراك المجتمع يفرضه). إن

القول بالعلاقة بين الواقع والفكر بدون هذين التحديدين يفضي إلى "مادوية"، حيث يعتبر كل فكر مادياً، لأنه واقعي، أو يفضي إلى اعتبار مبدئية هذه المسألة فكرة عامة، وبالتالي تجاهل أن مبدئيتها يعني أنها أساس في مجمل التحليل الواقعي، وبالتالي فهي محدِّد علاقة الذات بالموضوع. ليصبح التمسك المبدئي بها تمسكاً شكلياً ينتج رؤية مثالية في التعامل مع الواقع، حيث يصبح الفكر هو المحدِّد. وهذه هي مشكلة "الماركسية السوفيتية" عموماً. وهذه تختلف عما أسميته "الحلم" لأن "الحلم" هو الإجابة عن أسئلة الواقع ذاته، وبشكل علمي أيضاً، وبالتالي فهو الممكن أن يحتمل الواقع تحقيقه. بينما يغدو "الفكر العام" (المجرد) هو "الحلم"، أي، وهنا "الوهم".

لكن هذه الرؤية المثالية تفعل أكثر من ذلك لأنها تميل إلى تحديد الواقع ذاته انطلاقاً من الفكر، يغدو الواقع هو الفكر. ولا شك في أن هذين المنحيين (ولنقل الانحرافين) يفضي الواحد منهما إلى الآخر، لأن المنطق الشكلي هو أساس كل منهما. وسنجد أنهما متحدان في الغالب، حيث يَظهر "التضخم" في الكلمات "المادية"، وفي تحويل الفكر الذي يكرر بعض الكلمات التي غدت جزءاً من المنظومة المادية إلى فكر مادي، في الوقت

نفسه الذي يطغى فيه التصور المثالي في التحليل.

المادية تنطلق من أولوية الاقتصادي الاجتماعي على الوعي (الفكر)، ولكنها تحدِّد أيضا أن الاقتصادي هو الحاسم "في التحليل الأخير"، لهذا فهو الأساس في العلاقة ـ اقتصادي - اجتماعي، وما الاجتماعي سوى العلائق التي تنشأ انطلاقاً من هذا الأساس. فالاجتماعي، إذن، علاقة. ولهذا فإن تغيرها خاضع للتغير في الاقتصادي. إن نشوء الملكية الخاصة هو الذي فرض نشوء المجتمع الطبقي وتفكك المشاعة، كما أن إلغاؤها يفرض غياب الطبقات. واكتشاف الزراعة فرض (بالترافق مع نشوء الملكية الخاصة) التحول إلى الاستقرار الاجتماعي، ونشوء طبقات محدَّدة ـ ملاك الأرض، والفلاحون. ونشوء النقد، الذي جاء كنتيجة لحاجة توسع الإنتاج، فرض التحول إلى الاقتصاد السلعي وتوسع التجارة. وهكذا في الصناعة، التي فرض نشوؤها التحول في طبيعة وسائل الإنتاج (من الزراعة إلى الصناعة)، والتحول، أيضاً، في وضع الطبقات (بنشوء طبقات جديدة: البورجوازية، والبروليتارية). وبالتالي فالمادية تبدأ من الأساس (الاقتصادي)، ومن ثم تعبر إلى جملة العلاقات التي تنشأ في ضوئه (الاجتماعي)، وإلى، بالتالي، الوعي الذي ينشأ في ضوء

كل ذلك (الفكر). وتعبير إنجلز حول أن الاقتصادي هو المحدد "في التحليل الأخير" لا يهدف إلى التأخير والتقديم في تلك العلاقة، بل يهدف إلى تجاوز المنظور المبسط للمسألة، لهذا فهو ينتقد الرؤية التي جعلت هذه العلاقة أشبه بحل "معادلة رياضية بسيطة"[22]. إنه، إذن، يشير إلى الطابع المعقد للعلاقة: اقتصادي/ اجتماعي، ومن ثم للعلاقة: اقتصادي ـ اجتماعي/ فكري، وبالتالي يوضح أن استقلالية نسبية تسكن هاتين العلاقتين. إنه، يحارب التبسيط، ليؤكد أن المسألة أعمق وأعقد، وبالتالي، وإن كان الاقتصادي هو المحدِّد فيجب التحديد الدقيق والملموس للوضع الاجتماعي الفكري، والتأثير الذي يحدثه في الاقتصادي انطلاقاً من الاستقلالية النسبية التي يحظى بها، وأن هذا التأثير يمكن أن يجعلها، في لحظة ما، محدداً. لكن هذا التحول من كونها محددة إلى كونها محدِّداً يتأتي من الاقتصادي ذاته. والرؤية التبسيطية تعجز عن رؤية هذه العملية، لأنها تستنتج آلياً (ميكانيكياً) الاجتماعي من الاقتصادي، والفكري من الاقتصادي الاجتماعي. وبالتالي فهي تهدر الحاجة إلى التحديد

22-إنجلز نفس المصدر (ص6).

الدقيق الملموس للوضع الاجتماعي والفكري، وتتجاهل التأثير الذي يمكن أن يحدثه كل منهما في الاقتصادي، وفي كل ذلك تهدر الحاجة إلى التحديد الدقيق والملموس للاقتصادي ذاته.

إذن، تبدو كلمة واقع كأنها تستخدم وفق معنيين: الأول عام، يتعلق بالوجود البشري عموماً، وبعمله وعلاقاته، ومنتوجه اليدوي والذهني، والثاني محدَّد يتعلق بالواقع الاقتصادي - الاجتماعي تحديداً، وهو المسمى في المادية البنية التحتية، حيث يكون العامل الاقتصادي هو الحاسم "في التحليل الأخير" حسب توضيح إنجلز[23]. وهذه البنية هي المقابل للمادي في علاقة مادة/ فكر، هي الأساس المادي للوجود البشري. الرؤية المادية (الجدل المادي) تحوي المعنيين، الواقع بمعناه العام والواقع بمعناه المحدَّد، وترى أن العلاقة واقع/ فكر تتمظهر في المعنى الأول، تسكن فيه وتتحدد فيه، لكن ماديتها تتحدد في تأكيد أولوية المعنى الثاني ضمن علاقة واقع/ فكر، حيث الوجود البشري أسبق على الوعي، والعمل من أجل إعادة انتاج الحياة أسبق على وعي مقولة العمل وطابعه ومجمل العلاقات التي تحكمه.

23-إنجلز «رسائل حول المادية التاريخية» دار التقدم ـ موسكو (ص6).

والملكية الخاصة قبل الوعي بها وتنظيرها، وتشريعها، وتشكل الطبقات والعلاقات فيما بينها أسبق على الوعي بهذا الوجود وهذه العلاقات، مثلما أن "التبادل" أسبق على وجود النقد... إلخ. ولقد تبلور كل ذلك في الوعي (الفكر، التشريع) نتيجة الحاجة التي فرضها الوجود الواقعي الأسبق (التبادل فرض الحاجة إلى النقد، لكي تتطور عملية التبادل، والملكية فرضت الحاجة إلى تكريسها كمبدأ قانوني مقدس ـ حق، والطبقات فرضت ـ في الوعي ـ تكريس قدسية الانقسام واللاعدالة في توزيع الثروة، كما فرضت الحاجة إلى تنظيم مجمل العلاقات في المجتمع، وقوننتها ونشوء الدولة).

المادية هي الإقرار بكل ذلك، والانطلاق منه في التحليل، وعلى أساسها يقوم مفهوم الانعكاس. لكن المادية، انطلاقاً من ذلك فقط، لا ترتقي إلى الرؤية المادية (إي الجدل المادي)، وإن كانت محدِّد ماديته. إن تحولها إلى جدل مادي فرض الانطلاق من الواقع بمعناه الأول، ووفق علاقة الذات بالموضوع، كما فرض الانطلاق من مفهوم الصيرورة لوعي، ليس الواقع كبنية ساكنة، بل كبنية في صيرورة مستمرة، وفي الصيرورة تسكن مفاهيم التناقض، والتراكم الكمي والتغيّر النوعي، ونفي النفي.

بهذا تشكلت رؤية علمية للواقع في صيرورته، تبلورت المادية الحديثة (الجدل المادي)، وهي الوحيدة المادية المنسجمة.

سلسلة كراسات ماركسية

صدر منها:

1- الماركسية: عرض مختصر	لينين
2-بصدد الماركسية	سلامة كيلة
3-طريق الانتفاضة: لماذا تثور الطبقات الشعبية	سلامة كيلة
4-العمل المأجور والرأسمال	كارل ماركس
5-رسالة إلى رفيق (مهماتنا التنظيمية)	لينين
6- في الممارسة العملية	ماوتسي تونغ
7- في الممارسة (منطق العمل)	سلامة كيلة
8-المهمات الديمقراطية والاشتراكية	سلامة كيلة

